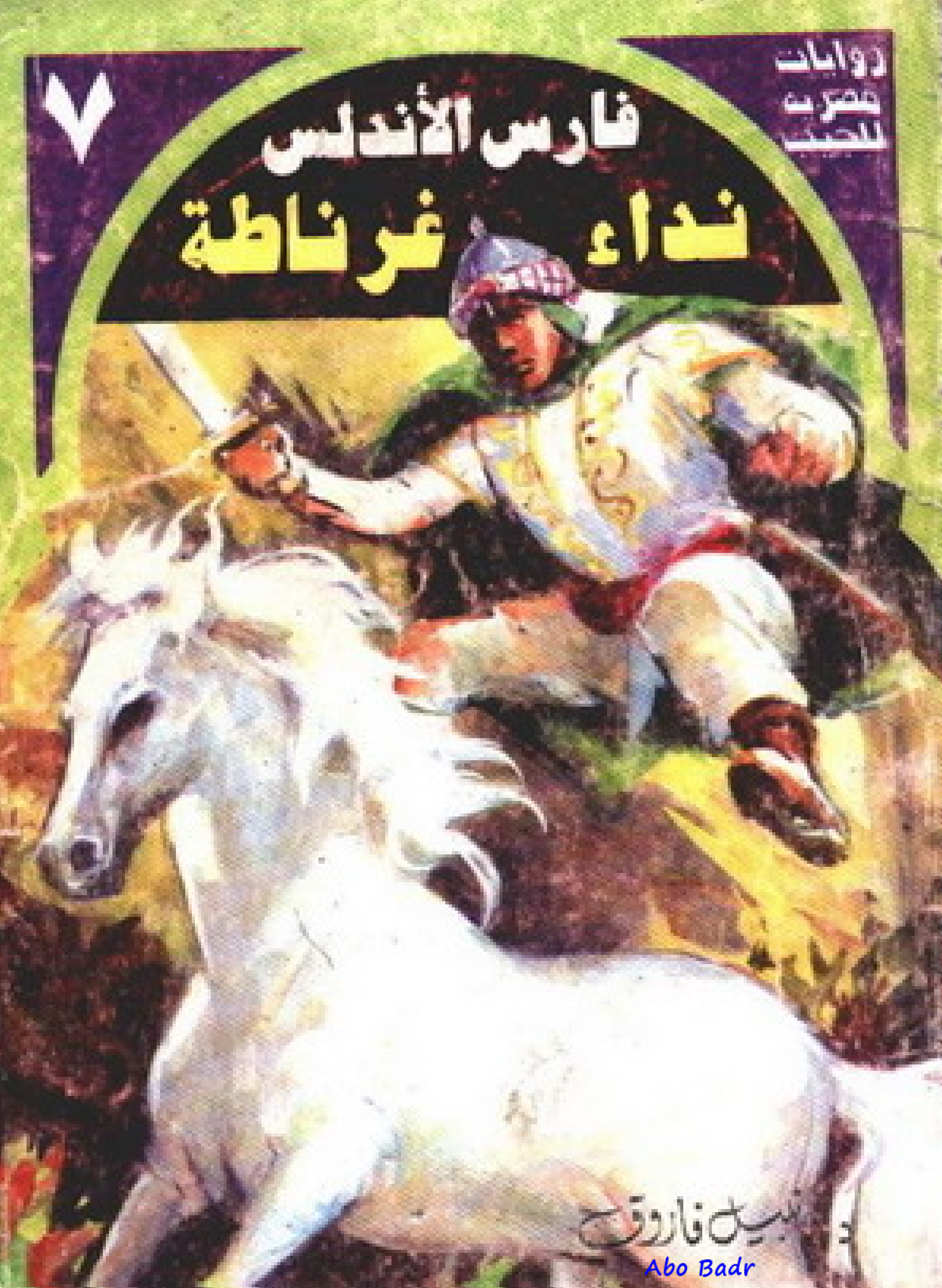

روايات مصرية للجيب
٧
فارس الأندلس
نداء غرناطة
د. نبيل فاروق
Abo Badr

من بين أوراق التاريخ جاء ..

من قلب الحضارة والأمل ظهر ..

من أجل العدالة والحق كان ..

رمز الماضي والحاضر والمستقبل ..

الفارس ..

فارس الأندلس ..

د. نبيل فاروق

١ ـ نقطة الهجوم ..

هطلت الأمطار فى غزارة ، فى ذلك اليوم ، على مملكة (غرناطة)(*) ، واختفت السماء خلف غيوم داكنة كثيفة ، تمرق بينها ، فى كل لحظة وأخرى ، خيوط البرق اللامعة ، فتضىء المنطقة كلها ، وتشق ذلك الظلام العجيب ، الذى ساد المنطقة كلها ، على الرغم من انتهاء سكانها من أداء صلاة العصر ، منذ ساعتين أو ما يزيد قليلًا ..

وفى ذلك المعسكر الصغير ، خارج أسوار المدينة ، أطلق (رفيق) صهيلًا منزعجًا ، وراح يضرب الأرض بحوافره فى عصبية ، وهو يدور حول نفسه متوترًا فى شدة ، فغمغم (فارس) ، وهو يراقبه من داخل خيمة الشيخ :

ـ ماذا أصاب (رفيق) اليوم ؟.. إنه يبدو منزعجًا ، على نحو لم أعهده به قط .

أجابه الشيخ بحكمته وهدوئه :

ـ الطبيعة ثائرة اليوم يا ولدى ، وهذا يبعث فى نفسه الخوف .

(*) مملكة (غرناطة) ، أو (الأندلس الصغرى) : فى السنوات الأخيرة من حكم العرب فى (الأندلس) ، انكمشت السيطرة العربية ، وانحصرت فى منطقة صغيرة ، عرفت بهذا الاسم (١٢٣٨ ـ ١٤٩٢م) .

هتف (فارس) فى دهشة :

- الخوف ؟!.. ولكن (رفيق) لا يخاف قط.. إنه يخوض معى أعتى المعارك ، دون أن يتردَّد لحظة واحدة .. إنه حتى لا يخشى النار ، التى تخشاها كل الحيوانات بصورة غريزية(★) منذ درَّبناه على مواجهتها فى صغره .

قال (مهاب) فى شيء من التوتر :

- غريزة (رفيق) نفسها ، هى التى تدفعه للخوف من الطبيعة ، على الرغم من شجاعته فى خوض الحروب ، فأعماقه تدرك أن الحروب من صنع البشر ، ولكن الطبيعة من صنع الخالق (عزَّ وجلَّ) ، والفطرة السليمة تقود المرء دائمًا إلى خشية الله (سبحانه وتعالى) .

ارتسمت ابتسامة وقور على شفتى الشيخ ، وهو يقول :

- أحسنت يا (مهاب) .

أما (فارس) ، فقد تطلع لحظة إلى معلم السلاح فى دهشة ، قبل أن يهتف ضاحكًا :

- ماذا أصاب الدنيا ؟!.. لقد اكسبتَ معلمى حكمة مباغتة .

عقد (مهاب) حاجبيه الكثَّين ، وهو يقول :

- ماذا تقصد بهذا ؟.. ماذا تقصد ؟

(★) حقيقة علمية .

لوَّح (فارس) بكفيه ، وهو يهتف قائلًا فى لهفة مرحة :

- لا شيء .. إنها مجرَّد دعابة .

استل (مهاب) سيفه ، وهو يهتف :

- دعابة تحتاج إلى هذا .

ابتسم الشيخ فى وقار ، عندما رأى (فارس) يعدو خارج الخيمة ، وهو يطلق ضحكات مرحة ، و (مهاب) يجدَّ فى إثره ، ملوِّحًا بسيفه ، وهاتفًا :

- انتظر .. لابد أن ألقنك درسًا .

توقَّف (فارس) تحت شجرة كبيرة ، وهو يضحك قائلًا :

- ماذا أصابك يا قائد الفرسان ؟.. هل تهاجم شابًا أعزل ؟

لوَّح (مهاب) بسيفه فى وجهه ، وهو يقول :

- نعم .. حتى أعلمه كيف يخاطب معلمه .

هزَّ (فارس) كتفيه ، وقال :

- لقد علمتنى أن أدافع عن نفسى ، فى كل الظروف الممكنة .

ثم وثب فجأة يتعلَّق بغصن الشجرة ، ودار حول نفسه فى مرونة مدهشة ، قبل أن يركل السيف من يد (مهاب) ، مستطردًا

- وأنا تلميذ نجيب .

فوجئ (مهاب) بفقدانه سلاحه، فحدّق فيه لحظة بدهشة، ثم لم يلبث أن انفجر ضاحكًا، وراح يقهقه فى سعادة، وهو يحيط كتفى (فارس) بذراعه القوية، ويضمه إليه هاتفًا :

- أحسنت يا فتى .. أحسنت .. إننى أشعر بالفخر ؛ لأننى علّمتك كل هذا .

أجابه (فارس) فى اعتزاز :

- بل أنا الذى يشعر بالفخر، لأنك أستاذى ومعلّمى يا قائد الفرسان .

قهقه (مهاب) ضاحكًا، وهو يقول :

- سابقًا يا ولدى .. سابقًا .

وانحنى يلتقط سيفه، ويدسّه فى غمده، ثم هتف فجأة فى سخط :

- انظر ماذا فعلت بى !.. لقد أغرقتنى بمطاردتك خارج الخيمة، فابتلت ثيابى كلها بمياه المطر .. انظر .

ضحك الشيخ، وهو يقول :

- يا لسرعة تبدّل مشاعرك يا (مهاب) !

مطّ (مهاب) شفتيه فى سخط، وهو يقول :

- ألم تر ما فعله بى يا سيّدى ؟!

هتف (فارس) مبتسمًا :

- رحماك يا معلّمى .. لن أحتمل تقريعك لى طوال اليوم، سأذهب إلى جوادى الوفى، فى محاولة لتهدئة ثائرته ..

أسرع نحو (رفيق)، وراح يربّت على عنقه، ويهمس فى أذنه بكلمات غير مسموعة، فرمقه (مهاب) بنظرة طويلة، قبل أن يقول فى حنق :

- هذا الفتى سيصيبنى بالجنون يومًا .

ثم لانت ملامحه بسرعة مدهشة، وارتفع حاجباه فى حنان، وهو يستطرد :

- ولكننى أشعر بالفخر، كلما تطلّعت إليه، كما لو كان ولدى .

ابتسم الشيخ فى حنان، وهو يتطلّع إلى (فارس)، قائلًا :

- إنه كذلك تقريبًا يا (مهاب) .. ألا تذكر كيف أوصانا مولانا الأمير، رحمة الله عليه، برعايته والحفاظ عليه، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ؟.. هل تذكر كيف نجحنا فى الفرار به من (قرطبة)، وكيف حملناه إلى هنا، وتعهدناه برعايتنا، ورحنا نلقنه العلم والحكمة، وندربه على فنون المواجهة والقتال، طوال السنوات الماضية ؟!.. كيف تفعل كل هذا، ثم لا تشعر فى أعماقك بأنه ولدك ؟

غمغم (مهاب) فى تأثر :

- صدقنى يا سيدى .. أنا مستعد لبذل حياتى من أجله ، دون أدنى لحظة من التردد .

انتقل تأثره إلى الشيخ ، وهو يقول :

- وأنا واثق من أنه يبادلك الشعور نفسه يا ولدى .

كان الاثنان يتطلعان إلى (فارس) فى هذه اللحظة ، وهو يواصل محاولته لتهدئة جواده (رفيق) ، على الرغم من أن الطقس لم يبد حتى النية فى التحسن ، وإنما راح يزداد سوءًا ، فتضاعفت قوة انهمار المطر ، وتزايد سطوع البرق ، حتى كادت خيوطه تتصل ، وتغطى السماء بنسيج لامع مضىء يزينه هزيم الرعد المتواصل ، و ...

وفجأة ، تخلى (فارس) عن جواده ، وتراجع فى حركة حادة ، ثم استل سيفه ، واندفع نحو الدغل القريب ، فهبَّ الشيخ من مجلسه فى ارتياع ، وصاح (مهاب) ، وهو يعدو نحو النقطة التى اخترقها (فارس) :

- رباه !.. ماذا حدث ؟

ولم يكد (مهاب) يصل إلى المكان ، حتى لاح له (فارس) داخل الدغل ، وهو يرفع سيفه فى وجه فارس عربى ، يمتطى جوادًا أصهب ، ويصيح به فى صرامة :

- توقف يا هذا ، وأفصح عن شخصيتك ، قبل أن تقترب من مسعكرنا .

كان الفارس مبتلًا بمياه المطر ، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ، ولكنه يحيط وجهه بلثام من الحرير الأزرق ، يشف عن ثرائه وعلو مكانته ، وعلى الرغم من سيف (فارس) الذى يكاد يلمس عنقه ، ظلَّ الفارس هادئًا ، وهو يقول :

- اخفض سيفك يا فتى ، فمن العار أن تشهره فى وجه مولاك .

تعرَّف (فارس) الصوت على الفور ، فأعاد سيفه إلى غمده فى سرعة ، فى حين ارتفع حاجبا (مهاب) فى دهشة بلا حدود ، وهتف :

- مولاى (ابن الأحمر) ؟!.. مرحبًا بك فى معسكرنا المتواضع ، ولكن ..

واصل الفارس سيره بجواده ، وتجاوز (مهاب) فى وقار ، وهو يقول :

- ولكن ماذا يا قائد الفرسان ؟!.. هل يدهشك أن يزور الأمير معسكركم ؟.. ألم أفعل هذا مرات من قبل ؟

نطق آخر كلماته وهو يتوقف بجواده ، ويترجل أمام خيمة الشيخ ، الذى استقبله بوقاره ورصانته ، وهو يقول :

- لمولانا الأمير أن يشرِّف معسكرنا بزيارته، وقتما وأينما يشاء، وإنما يدهشنا خروجه وحيدًا من قصره، فى مثل هذا الطقس .. لا أحد يمكنه أن يتخيَّل هذا !

دلف الأمير إلى الخيمة، ورفع اللثام عن وجهه، وهو يقول :

- نعم أيها الوزير .. لا أحد يمكنه أن يتخيَّل قدومى إليكم، فى مثل هذا الطقس، الذى لم نر مثله منذ سنوات طوال، ولكن هذا بالتحديد هو السبب، الذى دفعنى للقدوم ؛ فأنا أفضل ألا يعلم مخلوق بأمر هذه الزيارة .. لقد تسلَّلت من القصر سرًا، وسأعود إليه سرًّا .

التف الثلاثة حول الأمير، وبدا الاهتمام واضحًا فى ملامحهم ونظراتهم، و (مهاب) يسأل :

- خيرًا يا مولاى .

تنهَّد الأمير، وقال :

- كنت أتمنى أن يكون خيـرًا يا (مهاب)، ولكن المؤسف هو أن قدومى إليكم لا يعنى الخير فى المعتاد، بل يعنى وجود خطر يهدِّد (غرناطة)، وأننى أحتاج إلى مُعاونتكم للتصدِّى له .

قال (فارس) فى حزم وحماس :

- ونحن رهن إشارتك يا مولاى .. سنلبـى نداء (غرناطة) دومًا، إذا ما هتفت تنادينا .



على الرغم من سيف (فارس) الذى يكاد يلمس عنقه، ظلَّ الفارس هادئًا ..

شرد الأمير ببصره، وهو يردد كلمة (فارس) :

- نداء (غرناطة) !.. أحسنت يا ولدى فى اختيارك لعبارتك .. أحسنت كثيرًا .

سأله الشيخ فى اهتمام :

- ماذا حدث هذه المرة يا مولاى ؟

اعتدل الأمير فى مجلسه، وقال :

- القشتاليون يستعدون للهجوم الكبير .

سرى الانفعال فى أجسادهم، وغمغم (مهاب) :

- حقًا ؟!

أومأ الأمير برأسه إيجابًا، وقال :

- إنهم يحشدون جيوشهم، ويستعدون لاختراق حدودنا فى نقطة ما .

سأله (فارس) :

- أية نقطة بالتحديد ؟

تنهد الأمير مرة أخرى، قبل أن يجيب :

- هذا ما نجهله تمامًا .

وقبل أن يلقى أحدهم سؤالًا آخر، تابع الأمير فى مرارة :

- كل ما توصل إليه جواسيسنا، هو أن القشتاليين يستعدون لضربة شاملة، يركزون فيها هجومهم على إحدى نقاط الحدود، بحيث يمكنهم اختراق تحصيناتنا فيها،

والعبور منها، للالتفاف حول قواتنا فى النقاط الأخرى، وحصارها بين المطرقة والسندان، ثم إبادتها تمامًا .. وبعد هذا لن يعود هناك ما يحول بينهم وبين دخول (غرناطة) .

تبادل (فارس) و (مهاب) والشيخ نظرات قلقة، قبل أن يسأل الأخير :

- ألا توجد فكرة عامة، عن الأماكن المقترحة لمثل هذا الهجوم ؟

أجابه الأمير :

- لم نحصل على هذه المعلومات من القشتاليين، عبر جواسيسنا هناك، ولكن رجال الحرب عندنا اقترحوا ثلاث نقاط، يمكن أن يختارها القشتاليون، لتنفيذ مثل هذا الهجوم، وهى (البيرة)، و (شنتفى)، و (لوشة) .. ولكن هذا لا يحسم المشكلة، فالتصدى لمثل هذا الهجوم، يحتاج منا إلى حشد جيوشنا بدورنا، فى نقطة الهجوم بالتحديد، فلو قسمنا قواتنا إلى ثلاثة أقسام، ووزعناها على النقاط الثلاث، لن يكفى أى قسم منها لصد الغزو .

قال (فارس) فى حماس :

- فهمت يا مولاى .. من الضرورة إذن أن يتم تحديد نقطة الهجوم بمنتهى الدقة، وإلا خسرنا المعركة، ونجح القشتاليون فى دخول (غرناطة) .

ـ بدا الارتياح على وجه الأمير ، وهو يقول :

ـ بالضبط يا ولدى .. بارك الله فيك .. هذا ما نسعى إليه بالتحديد.. أن نعرف نقطة الهجوم ، ولكننا نجهل كيف يمكننا هذا ؟

أجابه الشيخ فى هدوء :

ـ اترك لنا هذه المهمة .

قال (فارس) :

ـ نعم يا مولاى .. اترك لنا مهمة تحديد المكان ، وسنبذل قصارى جهدنا ، بل وأرواحنا لو اقتضى الأمر ، حتى يمكننا أن نلبىَ النداء .

وامتلأ صوته بالحزم والحسم ، وهو يستطرد فى قوة :

ـ نداء (غرناطة) .

★ ★ ★



٢ ـ جيوش الخطر ..

شدّ الملك (فرناندو) قامته فى اعتداد ، وهو يتابع تجهيزات حشد الجيوش ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة واثقة مزهوة ، وهو يقول لقائد جيوشه (مارشيلو) :

ـ خطتنا محكمة هذه المرة أيها القائد .. هل تعتقد أنها ستصلح لهزيمة العرب ؟

ابتسم قائد الجيوش فى هدوء ، وقال :

ـ يا له من سؤال يا مولاى !.. جيشنا مكتمل كما ترى ، بعدته وأسلحته وعتاده .. والعرب لا يتوقعون منا هجومًا شاملًا مركزًا ، ولا يعلمون حتى فى أية نقطة سنبدأ هجومنا ، فكيف يتصدّون لكل هذا ؟!

قال الملك (فرناندو) :

ـ ربّما رصد جواسيسهم تجمعات الفرق وحشود الجيش ، وحدّدوا نقطة الهجوم .

أجابه (مارشيلو) فى دهاء :

ـ لقد وضعت هذا الاحتمال فى ذهنى يا مولاى ، واتخذت احتياطاتى بشأنه ، فالجيوش كلها تحتشد فى

(شقندة) ، بحيث يعجز أى جاسوس عن تحديد الاتجاه ، الذى ستذهب إليه ، وقبل تحركنا إلى نقطة الهجوم مباشرة ، سأعمل على تسريب بعض الأنباء ، التى تشير إلى أننا ننوى الهجوم من (لوشة) ، وسيبدأ الجيش تحرّكاته نحوها بالفعل ، ثم ينحرف بمساره عبر الأدغال ، ويتجه مباشرة إلى (البيرة) ، وهناك يتم تنظيمه على نحو معدّ مسبقًا ، ونقوم بالهجوم الشامل بغتة ، بحيث لا يستيقظ العرب ، إلا ونحن فى قلب (غرناطة) .

التقط (فرناندو) نفسًا عميقًا ، وقال :

- عظيم .. عظيم ..

وأشار بيده فى غطرسة ملكية ، مستطردًا :

- اخبرنى بالتفاصيل أوّلًا فأوّلًا ، وعندما يستعد الجيش ، سأخرج على رأسه لدخول (غرناطة) ، وإزاحة العرب منها إلى الأبد .

أجابه (مارشلّو) فى حماس :

- لن ينتظر مولاى طويلًا ليفعل هذا .

راقت العبارة للملك (فرناندو) ، وظلّ منتشيًا بها ، حتّى بلغ قصره فى (قرطبة) ، ولكنه لم يكد يستقر فى بهو الملك هناك ، حتّى هتف الحاجب :

- الملكة (إيزابيلا) .. ملكة (قشتالة) و (ليون) .

مطّ (فرناندو) شفتيه ، وغمغم محنقًا :

- ألا تتركنى تلك السخيفة لحظات ، أنعم فيها بنشوة الفوز !!

إلا أن ملامحه تبدّلت بسرعة ، لتحمل ابتسامة ترحيب كبيرة ، وهو يستقبل الملكة ، قائلًا :

- مرحبًا بمليكتنا العظيمة ، وجميلة جميلاتنا الفاتنة (إيزابيلا) .

بدت الدهشة على وجهها ، وأشارت لوصيفتها بالانصراف ، قبل أن تسأله فى صوت خافت :

- ماذا بك اليوم ؟.. ما سر كل هذا المرح ؟

لوّح بيده ، قائلًا :

- الجيوش تستعد للهجوم الشامل .

مطّت شفتيها ، وغمغمت :

- إنها ليست المرة الأولى .

عقد حاجبيه فى غضب ، لما تعنيه عبارتها ، وقال فى شىء من الحدة :

- ولكن هذه المرة ستكون الأخيرة .

تطلّعت إليه لحظة فى صمت ، قبل أن تقول :

- تبدو واثقًا إلى حد كبير هذه المرة .

عادت إليه ابتسامته ، وهو يغمغم :

- بالتأكيد .

سألته فى اهتمام :

- هل حدَّدتم نقطة الهجوم ؟

أجاب بسرعة :

- بالطبع .

انطلق السؤال من بين شفتيها كالبرق :

- أين ؟

كان يهمّ بارتشاف شيء من كأس خمرة ، فارتجفت أصابعه بغتة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وكأنما هوى عليه سؤالها كالصاعقة ، وبقى فى هذا الوضع المتجمدً لحظة ، قبل أن يرفع عينيه إليها ، ويرسم على شفتيه ابتسامة باهتة ، وهو يقول :

- ولماذا تقلق مولاتى نفسها بأمور الحرب والقتال ؟

قالت فى عصبية :

- هل نسيت أننى ملكة (قشتالة) و (ليون) ؟

أطلّت من شفتيه ابتسامة ساخرة ، وهو يقول :

- كلّا .. لم أنس قط أنك الملكة (إيزابيلا) الورعة ، راعية العلوم والفنون ، وأذكّرك بأننى لم أتدخّل فى شئونك قط من قبل ، حتى عندما أبديت اهتمامك بذلك الـ ... الـ .. أخبرينى ما اسمه ؟.. (كلوفيس) ؟

قالت فى حدة :

- بل (كولومبس) .. (كريستوفر كولومبس)(*) .. إنه ملّاح ومكتشف ، يحاول إقناعى بتمويل رحلة إلى الغرب ، عبر المحيط .

هتف (فرناندو) :

- عبر المحيط ؟!

ثم قهقه ضاحكًا فى سخرية ، قبل أن يستطرد :

- وما الذى يتوقّع أن يجده هناك ؟!.. شلالات نار أو وحوش عجيبة !!

قالت فى صرامة :

- بل أرض جديدة .

قهقه ضاحكًا مرة أخرى ، وهو يقول :

- أرض جديدة؟!.. ياللسخافة .. مجنون هو هذا الرجل .

ثم لوّح بذراعه ، مضيفًا فى حدة :

(*) (كريستوفر كولومبس) : (١٤٥١-١٥٠٨م) : يعود إليه فضل كشف (أمريكا) ، ولقد وُلد فى (جنوة) بـ (إيطاليا) ، وحصل على موافقة ملك (اسبانيا) للإبحار إلى (الهند) ، من طريق الملاحة فى المحيط الأطلنطى غربًا ، وأقلع بثلاث سفن (سانتا ماريا) ، و (بنتا) ، و (نينا) ، وعلى الرغم من كشوفه الرائعة ، انتهى به الأمر إلى الموت فقيرًا معدمًا ، ومغموزًا إلى حد كبير .

ـ ولكن هذا شأنك .. وافقى أو ارفضى .. لن يعنينى الأمر فى قليل أو كثير ، فكل ما سنخسره حينذاك هو بعض الأموال ، وسفينتين أو ثلاث .. أما شئون الجيش ، فسأشرف عليها وحدى .

صرخت فى غضب :

ـ ليس هذا من حقك .. أنا الملكة .

صاح فى صرامة :

ـ وأنا الملك .

انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تقول :

ـ حذار مما تفعله معى يا (فرناندو) .. إنك تتجاوز حدودك فى كثير من الأحيان ، ولن احتمل هذا طويلًا ، ثم إننى أرفض تمامًا أن تعاملنى كشخص يفتقر إلى ثقتك ، وترفض إخبارى بموضوع الهجوم .

ارتشف الخمر ، مغمغمًا :

ـ أردت أن أجنبك مشقة الانشغال بأحوال الجيوش .

قالت فى عصبية :

ـ ليس هذا من حقك .

صمت لحظة ، قبل أن يقول :

ـ فليكن .. سأخبرك .

وجرع ما تبقَّى فى كأسه دفعة واحدة ، ثم استطرد :

ـ سنبدأ الهجوم الشامل عند (لوشة) .

قالها ، وفى أعماقه تتكوَّن ابتسامة كبيرة ، نجح فى كتمانها داخله ، فلم تنتقل لمحة منها إلى شفتيه .. ابتسامة ساخرة ..

★ ★ ★

بدأ الطقس تحسّنه التدريجى ، مع شروق شمس اليوم التالى ، التى بدَّدت بأشعتها تلك الغيوم الداكنة ، بعد أن اعتصرتها الأمطار الغزيرة ، فبدت السماء صحوًا ، شبه صافية ، وخرجت الطيور من أوكارها ، وراحت تسعى بحثًا عن رزقها ..

وفوق الأعشاب الرطبة ، التى أغرقتها مياه الأمطار ، انطلق جوادا (فارس) و (مهاب) ، يشقان طريقهما نحو حدود القشتاليين ، وعلى متنهما الفارسان ، وقد امتلأت نفس كل منهما بالقوة والحماس ..

وفى إرهاق شديد ، هتف (مهاب) ، وهو يجذب عنان جواده :

ـ دعنا نسترح هنا قليلًا .

جذب (فارس) معرفة (رفيق) ، وهو يسأل :

ـ هل تشعر بالتعب ؟

أومأ (مهاب) برأسه إيجابًا، وهو يلهث بشدة، وابتسم فى ضيق، وهو يغمغم :

- عندما كنت فى مثل عمرك، لم تكن رحلة كهذه لترهقنى قط، ولكن للسن حكمه يا ولدى .

هبط الاثنان عن جواديهما، وضرب (فارس) الأرض بقدمه، وتطلّع إلى الرذاذ المتناثر، وهو يقول مبتسمًا :

- أى سن هذه التى تتحدّث عنها ؟.. إنك أكثر شبابًا منى .

ضحك (مهاب)، وهو يقول :

- عالج عينيك إذن .

توقفا يتطلعان إلى الشمس لحظات، ثم قال (مهاب) :

- كيلومترات قليلة ونعبر حدود العدو .. قل يا (فارس)، ألديك خطة محدودة، للقيام بهذه المهمة العويصة .

هزّ (فارس) رأسه نفيًا، وقال :

- ليس بعد، ولكن لدى تخطيط مبدئى، فجواسيسنا يؤكدون أن الجيوش القشتالية تتجمّع فى (شقندة)، وهى على بعد كيلومترات قليلة من (قرطبة)، وأمامنا وسيلتان للبحث عن الحقيقة .. إما أن نراقب الجيش، حتى يمكننا تحديد الاتجاه الذى سيتخذه، عندما يبدأ تحركاته، أو نذهب مباشرة إلى (قرطبة)، ونحوم حول القصر، فى محاولة لتصيّد المعلومات .

قال (مهاب) :

- أنا أميل إلى فكرة مراقبة الجيش .

أجابه (فارس) :

- وأنا على عكسك، أفضل الذهاب إلى (قرطبة)، وهذا من حسن الحظ .

قال (مهاب) فى دهشة :

- من حسن الحظ أن نختلف ؟!

أجابه (فارس) :

- بالطبع، فهذا يمنحنا فرصة استخدام الوسيلتين فى آن واحد .

سأله (مهاب) فى حيرة :

- وكيف هذا ؟

قال (فارس)، وهو يدير عينيه فيما حوله .

- عندما نبلغ (شقندة)، ستبقى أنت هناك، لترصد تحركات الجيش وأساليبه، بمعاونة جاسوسنا (عائد)، فى حين سأواصل أنا طريقى إلى (قرطبة)، وهناك سأستعين بجواسيسنا لدخول القصر، وربما توصلت إلى الحقيقة هناك .

خفق قلب (مهاب)، وهو يسأله .

- هل ستذهب إلى القصر وحدك ؟

التفتَ إليه (فارس) ، وسأله فى بساطة :
- وماذا فى هذا ؟
ولم ينطق (مهاب) بحرف واحد ، وهو يتطلّع إليه ..
كان يريد أن يخبره أنه سيشعر بالقلق من أجله .. ليس لأنه يشك فى كفاءته ، أو قدراته القتالية ، وإنما لتلك الصلة التى تربطه به ..
صلة أشبه بالأبوة ، تملأ قلب (مهاب) تجاه الشاب ، منذ أوصاه به والده الأمير ، إبان سقوط (قرطبة) ..
ولكن (مهاب) لم يخبره بهذا ..
لقد كتم عواطفه كلها فى أعماقه ، وتذكّر وصية الشيخ ، بضرورة منح الفتى ثقته الكاملة ، وهو يقول :
- على بركة الله يا ولدى .. سننفذ خطتك على بركة الله .
ثم سأله فى حيرة :
- لماذا تدير عينيك فى المنطقة كلها على هذا النحو .. ما الذى تبحث عنه ؟
أجابه (فارس) ، وهو يواصل تطلّعه بعيدًا :
- أبحث عن شخص ، وليس عن شىء ..
سأله (مهاب) :
- ومن هذا الشخص ؟
أجابه (فارس) :
- (فهد) .

ارتفع حاجبا (مهاب) لحظة فى دهشة ، ثم قال :
- لن تراه قط ، فمهارته تكمن فى قدراته المدهشة على التخفِّى .
تنهّدَ (فارس) وهو يقول :
- أعلم هذا !.. إنه يظهر فقط ، عندما تستدعى الأمور وجوده .
ثم وثب إلى جواده ، مستطردًا :
- فلننتظر هذه اللحظة إذن .
هتف (مهاب) معترضًا :
- هل سنواصل الرحلة بهذه السرعة ؟
أجابه (فارس) :
- لا فائدة من البقاء هنا ، فالعشب ما يزال مبتلًا ، ولن يمكننا الجلوس أو الرقاد .. دعنا نعبر حدود القشتاليين أوّلًا ، وسنجد هناك مكانًا يصلح للاسترخاء .
قفز (مهاب) على متن جواده ، مغمغمًا فى سخط :
- عند القشتاليين ؟!
ولكن (فارس) لكز جواده ، وانطلق نحو الحدود ، فلحق به (مهاب) ، وهو يهمهم فى حنق ، بكلمات غير مفهومة ..

وواصل الاثنان طريقهما لساعة أخرى ، ثم توقفا على مقربة من الحدود ، وهبطا عن جواديهما ، وتمتم (مهاب) ، وهو يراقب المنطقة فى حذر :

ـ المكان يبدو خاليًا ، ولكننى لست أدرى لماذا أشعر بالقلق !

فحص (فارس) المكان بنظره جيدًا ، قبل أن يقول :

ـ لست ألمح ما يمكن أن يثير القلق ، ولكننى أحترم شعورك هذا ، وليس أمامنا سوى وسيلة واحدة لحسم الأمر .

سأله (مهاب) :

ـ وما هى ؟

قفز (فارس) إلى جواده ، قائلًا فى حزم :

ـ أن نعبر الحدود .

وثب (مهاب) إلى جواده بدوره ، وقال :

ـ صدقت .

انطلق الاثنان نحو الحدود ، تحت أشعة الشمس الساطعة ، فى منتصف النهار ، وعبراها وعيونهما تجول فيما حولهما فى حذر ، قبل أن يغمغم (مهاب) :

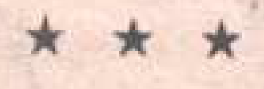
ـ عجبًا !.. كل شىء يبدو على ما يرام ، ولكن ..

قبل أن يتم عبارته ، أطلق (رفيق) صهيلًا مباغتًا ، وضرب الأرض بحوافره فى عصبية ، وهتف (فارس) :

ـ كنت على حق يا (مهاب) .

ومع كلماته ، اندفع ثمانية من القشتاليين من خلف الأشجار ، على صهوات جيادهم ، والتمعت سيوفهم تحت الشمس ، وهم يطلقون صيحات قتالية قوية ، وينقضون مباشرة على بطلينا ، و ...

وسالت الدماء عبر الحدود ..







مع كلماته ، اندفع ثمانية من القشتاليين من خلف الأشجار ، على صهوات جيادهم ..

٣ ـ الحدود ..

منذ نعومة أظفاره ، تدرَّب (فارس) على كيفية مواجهة الأخطار العنيفة المفاجئة ، وعلى التصدِّى لخصوم يفوقونه عددًا وعدة ..

وعندما تتلمذ (فارس) على يد (مهاب) ، معلم السلاح ، وقائد فرسان أمير (قرطبة) الراحل ، تعمَّد هذا الأخير أن يباغته بهجوم مفاجئ ، دون إنذار مسبق ، كل حين وآخر ، حتى اعتاد الأمر ، واكتسب مقدرة خاصة على التفاعل السريع ، ورد الفعل المباشر ..

ولقد أثبت (فارس) مهارته عن جدارة فى هذا اليوم ؛ فلم يكدِ القشتاليون يظهرون ، وينقضون عليه وعلى (مهاب) ، حتى استلّ سيفه ، وأطلق صيحة قتالية قوية ، ثم انقضّ عليهم بدوره ، وهوى سيفه على سيوفهم ، و (مهاب) يهتف به :

ـ قاتل يا (فارس) .. لا تسمح لهم بهزيمتك .

قالها (مهاب) وسيفه يطيح بسيف أحد القشتاليين ، ثم يرتد ليغوص فى صدر الثانى ، وفى نفس اللحظة ، كان

(فارس) يجذب معرفة (رفيق)، وينحنى فى مرونة، متفاديًا طعنة سيف، ثم اعتدل يضرب سيف أحد القشتاليين، وركله بقدمه فى عنف، فألقاه عن صهوة جواده، واستدار يصدّ ضربة قشتالى آخر، فالتقى سيفاهما بصليل قوى، امتزج بصهيل (رفيق)، وهو يناور مع فارسه فى خفة مدهشة .. وعلى الرغم من تفوّقهم العددى، أدرك القشتاليون أن سقوط ثلاثة منهم، فى اللحظات الأولى للقتال، يعنى أنهم يواجهون خصمين رهيبين، لاقبل لهم بهما، فتراجع قائدهم، هاتفًا :

- تراجعوا .. لابد أن نبلغ القائد .

حاول القشتاليون الخمسة التراجع على نحو منظم، ولكن (مهاب) انقضّ بسيفه، وهو يهتف :

- لا تسمح لهم بالفرار يا (سيف) .. سيبلغون الآخرين بوجودنا .

تلاقى سيفه مع سيوف القشتاليين ثانية، واشترك معه (فارس)، وواجه القشتاليون القتال مرغمين، ولكن هذا لم يمنعهم من الضرب بكل قوة وشراسة، وهتف قائدهم فى حنق :

- إنهم يريدون القتال يا رجال، فلنرهم كيف يكون القتال .

كان اليأس قد منحهم قوة إضافية، جعلتهم يقاتلون كالوحوش، فجرح أحدهم (فارس) فى ذراعه، وأصاب آخر (مهاب) فى كتفه، ولكن سيف الأوّل أسقط مهاجمه، فى حين مزّق سيف الثانى صدر خصمه ..

وبدأ القشتاليون الثلاثة الباقون يتراجعون فى توتر، وسيوفهم تواصل قتالها الشرس غير المنظّم، وراوغ (فارس) خصمه فى مهارة، ومال بجواده ليتفادى ضربة سيف آخر، ولمح بطرف عينه (مهاب) يتصدّى لهجوم الثالث، والدماء تغرق كتفه الأيمن، فاعتدل ودفع سيفه إلى الأمام، وقطع حزام سرج أحد القشتاليين، ورآه يسقط أرضًا، وزميله يتراجع هاتفًا :

- اللعنة .

وانطلق القشتالى يبتعد هاربًا، فى نفس اللحظة التى ضرب فيها زميله سيف (مهاب)، الذى عجزت ذراعه المصابة عن القتال، فتراجع هاتفًا :

- لن تهزمنى أيها القشتالى .

وحاول أن يضرب خصمه، الذى تفادى الضربة، ثم هوى على يده بضربة قوية، وهو يصرخ :

- هل تظن هذا ؟

تفادى (مهاب) الضربة بسرعة، ولكن ذبابة السيف لحقت بمعصمه، وأصابته بجرح عنيف، انبثق منه خيط من الدماء، ضاعف من وحشية القشتالى، فهوى بسيفه على عنق (مهاب)، صارخًا :

- والآن .. مت أيها العربى .

ولكن سيف (فارس) تصدّى لسيف القشتالى، ومنعه من إكمال طريقه، وصاحبه يقول في صرامة :

- الموت يأتى من الخالق وحده أيها القشتالى .

استدار إليه القشتالى فى سرعة، فعاجله (فارس) بضربة فى صدره، وأخرى فى عنقه، سقط لهما صريعًا على الفور ..

وفى توتر بالغ، هتف (مهاب)، وهو يحاول منع الدماء المتدفّقة من جراحه :

- أحدهم يحاول الفرار يا (فارس) .

استدار (فارس) فى سرعة، يلقى نظرة على القشتالى، الذى ينطلق بجواده مبتعدًا، ثم انتزع من كنانته سهمًا، دسّ مؤخرته فى وتر قوسه، وهو يقول :

- لن يذهب بعيدًا بإذن الله .

وكان القشتالى يعدو بكل قوته، عندما انغرس السهم أمام جواده مباشرة، فجفل الجواد، ودار على أعقابه، وهو يطلق صهيلًا قويًا، واتسعت عينا القشتالى فى ارتياع، وهو يواجه (فارس) من بعيد، وهتف :

- إنه العربى .

ولم يكد ينطقها، حتى انغرس السهم الثانى فى قلبه مباشرة، وأسقطه جثة هامدة ..

وغمغم (مهاب) فى ألم :

- لماذا لم تقتله بالسهم الأوّل ؟!.. أعلم أنك كنت تستطيع هذا .

عقد (فارس) حاجبيه، وهو يقول :

- كان من العار أن أفعل، فعندما أطلقت سهمى الأوّل، كان القشتالى يولينى ظهره، فأصبت الأرض أمام جواده، حتى يلتفت إلىّ ويواجهنى، وعندئذ ..

قاطعه (مهاب) بشهقة قوية، وعيناه تتسعان فى ألم رهيب، قبل أن يسقط رأسه على عنق جواده، وقد برز من ظهره سهم كبير ..

وصرخ (فارس) فى لوعة :

- (مهاب) !!

واستدار كالبرق إلى القشتالى الوحيد، الذى بقى على قيد الحياة، والذى وضع سهمًا ثانيًا فى وتر قوسه، وسدّده إلى (فارس) بسرعة ..

وانطلق سهم يشق الهواء، وأصاب هدفه بمنتهى الدقة، و ...

واتسعت عينا (فارس) فى دهشة، عندما جحظت عينا القشتالى، وبرز رأس سهم من عنقه، وانطلقت من حلقه حشرجة عجيبة، قبل أن يهوى جثة هامدة، ويظهر من خلفه عملاق أسود مفتول العضلات، على متن جواد (أدهم) ممشوق ..

وبكل لوعته وذعره، هتف (فارس) :

- (فهد) .. إلىّ يا (فهد) .

أسرع إليه (فهد) بجواده، فاستطرد فى ألم :

- (مهاب) .. لقد أصابوا (مهاب) .

وثب (فهد) من على متن جواده، واندفع نحو (مهاب)، وحمله بذراعيه القويتين، وأرقده على الأرض الرطبة، ثم انتزع السهم من ظهره، وراح يضمد جراحه فى سرعة ومهارة، فهتف به (فارس) :

- أهو حى ؟.. أمازال على قيد الحياة يا (فهد) ؟

أرقد (فهد) (مهاب) على ظهره، وانحنى يلصق أذنه بصدره، ثم اعتدل يدلك الصدر بقوة، وانحنى يستمع إليه مرة أخرى، و (فارس) يكرِّر :

- هل سينجو يا (فهد) ؟

لم يكد يتمّ عبارته، حتى سعل (مهاب) فى شدة، وتناثرت قطرات الدم مع سعاله، فقال (فارس) فى قلق :

- ما هذا ؟

لم يجب (فهد)، ولكنه واصل تضميد جراح (مهاب)، وتدليك صدره، وبعدها حمله فى رفق، ووضعه على ظهر جواده، فهتف به (فارس) :

- إلى أين تأخذه يا (فهد) ؟

أشار (فهد) بيده نحو الجنوب، دون أن ينبس ببنت شفة، فغمغم (فارس) :

- هل ستحمله إلى الشيخ ؟.. أتظنه يجد علاجًا لما أصابه ؟

اعتلى (فهد) صهوة الجواد نفسه، الذى وضع عليه جسد (مهاب)، وضمّ إليه الجسد فى قوة، ليقيه ارتجاجات الجواد، الذى جذب عنانه، واستدار فى بطء، ثم انطلق به كالرياح، دون أن يجيب سؤال (فارس)، ولكن هذا الأخير لوَّح بيده، وغمغم فى مرارة :

- اعتن به جيدًا يا (فهد) .. اعتن به بقدر ما تستطيع .

وتابع جواد (فهد) ببصره، حتى اختفى فى الأفق، ثم وثب إلى جواده، واعتصر حزنه وآلامه فى أعماقه، وانطلق ليكمل مهمته، بعد أن عبر الحد الفاصل، بين الأصدقاء والأعداء ..

الحدود ..

حدود (قشتالة) ..

★ ★ ★

انعقد حاجبا الملكة (إيزابيلا) فى غضب شديد ، وهى تجلس فى حجرتها ، ولاذت بالصمت طويلًا ، حتى اقتربت منها وصيفتها (بالوما) ، وسألتها فى صوت خافت :

ـ ماذا يؤرق مولاتى ؟

أجابتها (إيزابيلا) فى شراسة :

ـ ليس هذا من شأنك .

تراجعت الوصيفة مذعورة ، وانكمشت على نفسها ، مغمغمة :

ـ فلتغفر لى مولاتى .. إنما أردت التسرية عنك فحسب .

صمتت (إيزابيلا) لحظات ، ثم التفتت إليها تسألها :

ـ ألك صديق بين فرسان القصر ؟

شحب وجه الوصيفة ، وهى تردِّد مرتبكة :

ـ صديق ؟!

أجابتها الملكة فى صرامة :

ـ نعم .. صديق .. أتتصورين أننى أجهل كيف تدور الأمور ، فى هذا القصر اللعين ؟.. كلكن تصادقن فرسان القصر .. هذا بعد أن يفرغ منكن الملك بالطبع .

كادت الوصيفة تنهار ، وهى تقول :

ـ مولاتى .. إننى ..

قاطعتها (إيزابيلا) فى حزم :

ـ رويدك يا (بالوما) .. لست أتهمك ، وإنما ألقى سؤالًا مباشرًا ، وأريد جوابًا مباشرًا بالمثل .. ما اسم صديقك هنا ؟

خفضت (بالوما) عينيها ، وتمتمت فى خجل :

ـ (بلانكو) يا مولاتى :

التقطت الملكة نفسًا عميقًا ، قبل أن تقول :

ـ عظيم .. أرسلى فى طلب (بلانكو) هذا .

رفعت (بالوما) عينيها إليها فى دهشة صامتة ، ثم عادت تخفضهما ، مغمغمة :

ـ أمر مولاتى .

ولم تمض دقائق معدودة ، حتى كان الفارس (بلانكو) يقف أمام الملكة ، وينحنى فى إجلال ، قائلًا :

ـ الفارس (بلانكو) رهن إشارة مولاتى الملكة (إيزابيلا) المبجَّلة ، ملكة (قشتالة) و (ليون) .

سألته ، وهى ترمقه بنظرة متفحِّصة :

ـ وماذا عن الملك ؟

رفع (بلانكو) عينيه إلى وجهها فى دهشة ، مغمغمًا :

- ماذا عنه يا مولاتى ؟!

سألته مباشرة :

- لمن تدين بالولاء أكثر ، إذا ما تعقّدت الأمور .. لى أم للملك ؟

كان السؤال مباغتًا ، حتى أن (بلانكو) ارتبك فى شدة ، وعجز عن الجواب مباشرة ، فرمقته الملكة بنظرة صارمة ، وهى تستطرد :

- الجواب لا يحتاج إلى تفكير طويل أيها الفارس .

نقل (بلانكو) نظره فى سرعة ، من وجه الملكة إلى وصيفتها الفاتنة ، ثم عاد إلى الملكة ، قائلًا فى حزم :

- لمولاتى الملكة بلا تردّد .

ارتسمت على شفتيها ابتسامة ظافرة ، وهى تقول :

- عظيم .. الملكة ستسند إليك مهمة إذن ؛ لتثبت بها ولاءك لها .

بدا القلق على وجه الشاب ، وهو يقول فى حذر :

- مهمة يا مولاتى ؟

مالت الملكة نحوه ، قائلة :

- نعم .. مهمة خاصة ، لا أريد أن يعلم الملك عنها أى شىء .

اعتدل الشاب ، وقال :

- أمر مولاتى .

عادت إلى مجلسها ، وبقيت تتطلّع إليه ثوان ، ثم قالت فى حزم :

- سأرسلك إلى قائد الجيوش (مارشيلو) برسالة خاصة .

وبدت ابتسامتها غامضة للغاية ، مع استطرادتها :

- خاصة جدًا .

وازدادت ابتسامتها غموضًا ..

* * *

بلغ (فارس) أسوار (شقندة) مع غروب الشمس ، ودخلها وهو يلهث من فرط التعب والإرهاق ، اللذين شاركه إياهما جواده (رفيق) ، وبدت استعدادات الجيوش واضحة للأعين ، فقد أقيمت المعسكرات حول المدينة ، واكتظت بالجنود ، الذين ملئوا الأسواق ، وانتشروا فى الطرقات ..

ولم يكد (فارس) يقطع بضعة أمتار داخل المدينة ، حتى استوقفه جنديان قشتاليان ، وسأله أحدهما فى صرامة :

- من أنت يا فتى .. وماذا تفعل فى (شقندة) ؟

أجابه (فارس) فى ثبات ، دون أن يطرف له جفن ، وبلغة قشتالية سليمة ، لقّنه إياها الشيخ ، منذ نعومة أظفاره :

- أنا (رودريجو دى ليون) ، جئت لزيارة عمى (فرانشو) هنا .

كان يرتدى ثيابًا قشتالية الطراز ، ولكن قيادته لجواده دون سرج أو لجام أثارت ريبتهما ، فسأله الآخر :

ـ أين يقيم عمك هذا ؟

شدّ (فارس) قامته فوق الجواد ، وقال :

ـ ألا تعرفان عمى (فرانشو) ؟!.. عجبًا !.. إنه واحد من أكبر تجار الأقمشة هنا .

هتف الجندى :

ـ آه (فرانشو) .. (فرانشو دى ليون) .. أنا أعرفه بالطبع .. لقد ابتعت ثياب امرأتى من متجره .

ثم أشار إلى (فارس) ، مستطردًا :

ـ هيًا يا فتى .. بلغ تحياتنا لعمك .

جذب (فارس) معرفة (رفيق) ، وانطلق به داخل المدينة ، والجنديان يتابعانه ببصريهما ، ولم يكد يختفى عن بصريهما ، حتى قال الجندى الأوّل فى توتر :

ـ هذا الفتى يثير شكوكى .

قال زميله :

ـ لماذا ؟.. إنه ابن شقيق (فرانشو) .

أشار الجندى إلى حيث اختفى (فارس) وجواده ، وقال :

ـ هل رأيت جواده الأبيض ، والوسيلة التى يمتطيه بها ، دون سرج أو لجام ؟.. ألا يذكرك هذا بتلك الروايات ، التى يرددونها حول (فارس أندلسى) ، يتصدّى لنا دائمًا ، ويتحدى ملكنا (فرناندو) مباشرة ، مرتديًا زيًا أبيض وحرملة كبيرة ، وممتطيًا جوادًا أبيض كهذا ، بالطريقة نفسها ؟

عقد زميله حاجبيه ، وهو يتمتم :

ـ هذا صحيح .. هل تعتقد أنه توجد صلة بين هذا وذاك ؟

قال الأوّل فى شىء من العصبية :

ـ لو أردت رأيى ، فأنا أظنهما شخصًا واحدًا .

هتف زميله مذعورًا :

ـ يا للكارثة !.. لو أن هذا الفتى هو ذلك الأندلسى ، سيعدمنا القائد (مارشيلو) ، لسماحنا له بدخول (شقندة) .

قال الأوّل فى حنق :

ـ كان ينبغى أن نتأكد من أنه ابن شقيق (فرانشو) .

بدا زميله شديد التوتر ، وهو يقول :

ـ لم يفت الوقت بعد .. دعنا نذهب إلى (فرانشو) ، ونبحث عنه هناك .

وفى نفس الوقت الذى بدأ فيه الجنديان عملية البحث عن (فارس)، كان هذا الأخير يدلف بجواده إلى ساحة منزل كبير، ويهبط عنه قائلًا لخدم الدار :

ـ أين سيدكم (جلال) ؟

قبل أن تنفرج شفتا أحد الخدم بحرف واحد، ارتفع صوت عربى يهتف :

ـ مرحبًا بك يا ولدى .. أهلًا وسهلًا فى دار (جلال بن العربى) .

تصافحا فى حرارة واضحة، وسأله (جلال) :

ـ من أين أتيت ؟

أجابه (فارس) :

ـ من حيث تشرق الشمس العربية، وأحمل إليك هذا .

وناوله مصحفًا صغيرًا، له غلاف من الذهب الخالص، فتألقت عينا الرجل، وارتجفت شفتاه وهو يتمتم :

ـ الله أكبر .. الله أكبر .. رحماك يا إلهى !

ثم حدّق فى وجه (فارس)، مستطردًا :

ـ كيف حال الوزير ؟.. كيف حاله ؟

أجابه (فارس) :

ـ فى خير حال يا سيد (جلال) .. لقد ارسلنى إليك، ويناشدك أن تتعاون معى، و ...



وناوله مصحفًا صغيرًا، له غلاف من الذهب الخالص، فتألقت عينا الرجل .

اتسعت عينا الرجل بغتة فى شدة، وحدَق فى وجه (فارس)، هاتفًا :

- ربّاه !

سأله (فارس) فى قلق :

- ماذا هناك يا عماه ؟

أمسك الرجل كتفيه فجأة، وقال فى انفعال :

- إنك هو .. رباه !.. إنك صورة طبق الأصل منه .. إنك هو ..

سأله (فارس) متوترًا :

- من هو ؟

ارتجفت يدا الرجل، وارتعدت شفتاه، وترقرق فى عينيه دمع عجيب، وهو يجيب :

- مولاى الأمير .. مولاى أمير (قرطبة) .. مولاى الـ...

قاطعه بغتة صوت أحد خدمه، وهو يهرع إليه، هاتفا فى توتر :

- القشتاليون يا سيِّد .. القشتاليون هنا .

وكانت مفاجأة للجميع ..

مفاجأة مخيفة .

★ ★ ★

٤ ـ المواجهـة ..

وقف القائد (مارشيلّو) فى ساحة التدريبات، يراقب فرسانه وهم يلقون رماحهم، ويرمون سهامهـم، أو يتبارزون بسيوفهم، وأومأ برأسه فى بطء، راضيًا عن المستوى الذى يراه، والمهارة التى بلغها جنوده، وهمَّ بإلقاء بعض التعليقات، عندما اقترب منه أحد معاونيه، وهمس فى أذنه :

- فارس من فرسان القصر يطلب مقابلتك يا سيِّدى القائد .

عقد القائد حاجبيه فى اهتمام، وهو يقول :

- فارس من فرسان القصر ؟!.. لا ريب أنها رسالة عاجلة من مولاى الملك (فرناندو) .

وأسرع عائدًا إلى قلعته، ليستقبل فارس القصر، الذى قابله بتحية عسكرية قوية، استلّ خلالها سيفه، ووضع صفحته على جبهته، قائلًا :

- تحية لقائد الجيوش .

عقد (مارشيلّو) كفيه خلف ظهره، وهو يسأل .

- ماذا لديك أيها الفارس ؟

تلفت (بلانكو) حوله ، ورمق جنود (مارشيلو) بنظرة جانبية ، قبل أن يقول فى حزم صارم :

- الأوامر تقول : إنها رسالة سرية للغاية يا سيدى القائد .

التقى حاجبا (مارشيلو) لحظات ، ثم أشار إلى جنوده ، قائلاً :

- خذوا سيفه ، وغادروا المكان لتتركونا وحدنا .

أمسك (بلانكو) سيفه فى قوة ، وقال فى حدة :

- فرسان القصر لا يتخلون عن سيوفهم قط يا سيدى القائد .

قال (مارشيلو) فى صرامة :

- إنها أوامرى .

أجابه (بلانكو) فى صرامة أكثر :

- وهى لا تعلو أوامر مولاى الملك أو مولاتى الملكة .

التقت عيونهما فى توتر شديد ، وران عليهما الصمت لحظات ، قبل أن يقطعه (مارشيلو) ، قائلاً :

- ومن يضمن لى أنك أحد فرسان القصر ؟

التقط (بلانكو) من حزامه رسالة مختومة بالشمع ، وناوله إياها ، وهو يقول فى حزم واثق :

- هذه الرسالة .

التقط (مارشيلو) الرسالة ، ولم يكد يلقى نظرة على الخاتم المطبوع على دائرة الشمع ، حتى ازداد انعقاد حاجبيه ، إلى حد بدا معه وكأنهما سيمتزجان تمامًا ، فقد كان يتوقع أى شيء ، إلا أن تكون الرسالة مختومة بخاتم الملكة (إيزابيلا) ، وليس بخاتم الملك (فرناندو) ..

وانطلق عقله يتساءل عما يعنيه هذا ..

لماذا ترسل إليه الملكة رسالة سرية خاصة ؟..

لماذا ؟..

وقبل أن يطول تساؤله ، أشار إلى جنوده ، قائلاً :

- اتركونا وحدنا .

غادر الجنود المكان على الفور ، فى حين أعاد (بلانكو) سيفه إلى غمده ، وعقد ساعديه أمام صدره ، ووقف ينتظر فى صمت ..

وفضّ (مارشيلو) رسالة الملكة فى لهفة ، وقرأها فى سرعة ، ثم عاد حاجباه ينعقدان فى كثير من القلق والدهشة ، فقد كانت الملكة تدعوه لزيارتها فى جناحها الخاص ، بدون علم الملك (فرناندو) ، أو المرور ببطانته ، وحددت له موعدًا فى مساء اليوم التالى مباشرة ..

وقرأ (مارشيلو) الرسالة للمرة الثانية ..
والثالثة ..
والرابعة ..
ولم يكد ينتهى من قراءتها للمرة الخامسة ، حتى طواها بسرعة ، وقال للفارس (بلانكو) :
ـ عد إلى مليكتك ، وأخبرها أن (مارشيلو) رهن إشارتها ، وسينفذ كل ما أمرته به .
ابتسم (بلانكو) ابتسامة باهتة ، وهو يقول :
ـ أمر قائد الجيوش .
وانحنى نصف انحناءة ، ثم غادر المكان فى سرعة ، وانطلق بجواده لنقل الرد إلى الملكة ..
ودون إبطاء ..

* * *

لم يكد (فارس) يسمع هتاف الخادم ، وصيحته بأن القشتاليين فى الطريق ، حتى وثبت أصابعه بسرعة إلى مقبض سيفه ، وهمّ بانتزاعه من غمده ، ولكن (جلال) أمسك معصمه ، وهو يقول :
ـ لا يا ولدى .. ليست هذه هى الطريقة .
ثم هتف بخدمه :
ـ اذهبوا بضيفنا إلى الطابق الثانى من الدار ، واصطحبوا الجواد إلى اسطبلى الخاص .. بسرعة .

كان المكان ، الذى اصطحبه إليه الخدم ، عبارة عن حجرة فى الطابق الثانى ، تطل من نافذة خفية على الساحة ، التى اقتحمها القشتاليون ، فاستقبلهم (جلال) فى هدوء ، وهو يسأل :
ـ ماذا تنشدون من دارى ؟
سأله كبيرهم فى صرامة :
ـ هل استضفت اليوم شابًا عربيًا ، يرتدى ثياب القشتاليين ، ويمتطى جوادًا أبيض ، دون سرج أو لجام ؟
رفع (جلال) حاجبيه فى دهشة مصطنعة ، وهو يقول :
ـ دون سرج أو لجام ؟!.. وكيف يمكن لفارس أن يقود جوادًا بهذه الطريقة ؟!
صاح به القشتالى :
ـ لا تتظاهر بالغباء أيها العربى .. أنا أعرف مكركم ودهاءكم .. وأعتقد أنه كان من الأفضل أن نقتلكم جميعًا ، فور دخولنا (قرطبة) ، ولكن الفرصة لم تضع بعد ، أجبنى بصدق ، وإلا نقلت اسمك من قائمة العرب الأحياء ، إلى قائمة الموتى الأغبياء .
صمت (جلال) لحظة ، ثم أجاب فى حزم :
ـ لقد سمعت جوابى أيها القشتالى .
صرخ القشتالى ، وهو يصفعه بكل قوته :
ـ أيها الغبى .

انتفض جسد (فارس)، عندما دوت الصفعة فى الساحة، وسقط (جلال) أرضًا، وشهق الخدم فى خوف، والقشتالى يستل سيفه، هاتفًا :

ـ اعترف أيها العربى .. اعترف وإلا بترت رأسك، وفصلته عن جسدك .

مسح (جلال) خيط الدم، الذى سال من طرف شفتيه، وقال :

ـ لقد سمعت الحقيقة أيها القشتالى .

وفى تلك اللحظة اندفع أحد جنود القشتاليين إلى الساحة، وهتف :

ـ عثرنا على الجواد الأبيض فى الاسطبل .

هتف (جلال) :

ـ إنه جوادى الخاص .

ولكن قائد القشتاليين تجاهل قوله تمامًا، وهو يسأل الجندى :

ـ أأنت واثق من أنه الجواد نفسه ؟

أجابه الجندى بسرعة :

ـ نعم يا سيّدى، فلا آثار بعنقه أو ظهره، لسرج أو لجام .. ومن الواضح أنه لم يستخدمهما قط تقريبًا .

استدار القشتالى إلى (جلال) فى غضب، وصاح :

ـ أنت جنيت على نفسك أيها العربى، ولذلك ..

ورفع سيفه إلى أعلى بكل قوته، صارخًا :

ـ والآن مت .

وهوى السيف بكل قوته ..

وفجأة، انطلقت من أعلى صرخة هادرة :

ـ إياك .

تجمّد سيف القشتالى فى مكانه، عندما رأى (فارس) يقفز نحوه من الطابق الثانى، ويهبط أمامه على قدميه، ثم يعتدل فى سرعة البرق، هاتفًا :

ـ لن تريق الدماء العربية هنا قط .

وبأسرع من لمح البصر، كان سيف (فارس) يهوى على سيف القشتالى، ويطيح به بعيدًا، فتراجع القشتالى صارخًا :

ـ النجدة أيها الجنود .. النجدة .

كان الجنود مستعدين للانقضاض على (فارس)، فور سماع هتاف قائدهم، إلا أنه بادرهم بهجومه فى شجاعة مدهشة، وانقضّ عليهم بسيفه، الذى هوى على سيوفهم ومجنّاتهم وصدورهم فى قوة وسرعة، و (فارس) يقول :

ـ ما قولكم الآن، عندما تواجهون عربيًا مسلحًا ؟.. هل فارقتكم بسالتكم الزائفة ؟!

هبَّ (جلال) من رقاده ، مع صليل السيوف ، ورأى أمامه (فارس) يقاتل خمسة من القشتاليين فى شجاعة الليث وقوة النمر ، ويضربهم بسيفه وقدميه ، وهو يواجههم بصدر عار ، ودون درع أو مجن ، فهتف بخدمه :

ـ إلىَّ بسيفى يا رجال .

ألقوا إليه سيفه ، فانقضَ على القشتاليين بدوره ، وهو يهتف :

ـ حانت ساعة الثأر لأمير (قرطبة) .. حانت ساعة الثأر .

تساقط القشتاليون أمام السيفين العربيين ، ولكن أحدهم استقبل سيف (فارس) بقوة مدهشة ، ثم ضربه بمنجنه فى وجهه ، وهو يهتف :

ـ تتحدثون كثيرًا يا معشر العرب ، ولكن سيوفكم لا تبلغ قط طول ألسنتكم .

كان شديد القوة بالفعل ، حتى أن ضربته زلزلت كيان (فارس) ، وأجبرته على التراجع خطوتين إلى الخلف ، وعندما حاول أن يعتدل ، أصابته ضربة أخرى من المجنَ الثقيل ، والقشتالى يستطرد :

ـ وغروركم يدفعكم للتخلى عن حذركم ، ومواجهتنا بصدور عارية .

وسقط (فارس) من أثر الضربة الثانية ، فقهقه القشتالى ، وهتف وهو ينقضَ بسيفه على صدره :

ـ فلتستقبل صدوركم سيوفنا إذن .

تحرَّك (فارس) فى سرعة مدهشة ، ودفع جسده إلى اليسار ، متفاديًا نصل السيف ، الذى أصاب الأرض الرخامية فى عنف ، فى نفس اللحظة التى دفع فيها (فارس) سيفه ، وأغمده فى قلب القشتالى ، قائلًا :

ـ وماذا عن صدوركم أنتم ؟

شهق القشتالى ، واتسعت عيناه فى ارتياع ، وترنَّح جسده لحظة ، وهو يتمتم مختنقًا :

ـ لقد .. لقد فعلتها .

ثم هوى جثة هامدة ، فنهض (فارس) فى سرعة ، وسمع (جلال) يقول :

ـ أنت تقاتل كوالدك تمامًا .

أعاد (فارس) سيفه إلى غمده ، وهو يقول :

ـ معذرة يا سيِّد (جلال) .. لقد أفسدت حياتك هنا .. من المؤكَّد أن عشرات القشتاليين سيهرعون إلى منزلك ، ويقلبونه رأسًا على عقب ، فور علمهم بما حدث ، ولن يمكنك البقاء لاستقبال انتقامهم الدموى .

أجابه (جلال) :

ـ لا عليك .. كنت أعلم أن هذا سيحدث ، إن عاجلًا أو آجلًا ، وكنت أعد العدة لاستقبال مثل هذا اليوم .

ثم التفت إلى خدمه ، قائلًا :

ـ أحضروا جواد الضيف وجوادى ، وأعطونى صرتين من النقود الذهبية ، أما أنتم ، فخذوا ما تبقَّى من النقود والجياد ، واذهبوا قبل وصول القشتاليين .. لقد أعتقتكم لوجه الله ..

سأله (فارس) :

ـ الى أين ستذهب يا سيِّد (جلال) ؟

التفت إليه (جلال) ، وقال :

ـ هل نسيت يا فتى ؟!.. أمامنا مهمة لم تكتمل بعد .

وامتلأ صوته بالصرامة ، وهو يستطرد :

ـ فى (قرطبة) .

وفى نفس اللحظة ، التى بدأ فيها القشتاليون يقلبون (شقندة) رأسًا على عقب ، بحثًا عن الفارس الأندلسى ، كان هذا الأخير ينطلق بجواده مع (جلال) ، تحت جناح الليل ، فى طريقهما لتلبية النداء ..

نداء (غرناطة) .

★ ★ ★

٥ ـ قرطبة ..

تطلَّع الملك (فرناندو) إلى شروق الشمس ، من شرفة قصره المطلة على (قرطبة) ، وارتشف رشفة من كأس الخمر فى يده ، وشرد ببصره وأفكاره لحظات ، حتى تناهى إلى مسامعه صوت أنثوى رقيق ، يهمس :

ـ مولاى .

استدار يتطلَّع فى هدوء إلى (بالوما) الفاتنة ، التى انحنت نصف انحناءة أمامه ، فى رقة بالغة ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة لا تبشر بالخير ، وهو يقول :

ـ لقد أتيت بسرعة يا (بالوما) .. كنت أتصوَّر أنك ستحتاجين إلى ساعة على الأقل للحضور إلى جناحى ، عندما أستدعيك قبل شروق الشمس .

أجابت فى رقة :

ـ أنا رهن إشارة مولاى الملك ، فى أية لحظة ، من النهار أو الليل .

امتزجت ابتسامته بشىء من السخرية ، وهو يقول :

ـ هكذا ؟!.. كم يروق لى ولاؤك يا (بالوما) .

اشتمّت رائحة السخرية على لسانه ، فاختلست نظرة سريعة إليه ، ولاذت بالصمت التام ، وهو يقترب منها ، ويتحسّس شعرها الأسود الناعم الطويل بظهر يده ، ويتطلّع إلى عينيها الجميلتين مباشرة ، قبل أن يقول فجأة فى صرامة :

ـ ولكن كيف يتفق هذا الولاء مع التآمر ؟

انتفض جسدها فى عنف ، وهى تهتف هلعة :

ـ التآمر ؟

أمسك شعرها الطويل بغتة فى عنف ، وهو يقول :

ـ نعم يا (بالوما) الفاتنة .. التآمر مع الملكة (إيزابيلا) ؛ لخداع الملك .

صرخت فى ألم وذعر ، هاتفة :

ـ رحماك يا مولاى .

جذب شعرها فى قسوة ، وهو يدفعها إلى أسفل ؛ ليجبرها على الركوع أمامه ، وهو يقول فى صرامة غاضبة :

ـ ما الذى تآمرت به الملكة مع صديقك (بلانكو) ؟.. أفصحى أيتها اللعينة ، وإلا مزّقتك إربًا .

بكت فى ذعر وارتياع ، وهى تقول :

ـ لست أدرى يا مولاى .. أقسم لك .. لست أدرى .. لقد طلبت منى الملكة إحضار (بلانكو) ، ثم أسندت إليه مهمة سرية .

صاح بها :

ـ أية مهمة ؟

بكت فى ألم ، وهى تهتف :

ـ لست أدرى يا مولاى .. كل ما أعلمه هو أنها مهمة سرية .

صفعها بكل قوته ، صارخًا :

ـ بل تعلمين أيتها الكاذبة اللعينة .. جواسيسى أخبرونى أنك غادرت جناح الملكة مع (بلانكو) ، وهذا يعنى أنك سمعت كل ما قالته له الملكة .

انحنت تقبّل قدميه فى انهيار ، هاتفة :

ـ الرحمة يا مولاى .. سأعترف .. سأعترف بكل شىء .. مولاتى الملكة أرسلته إلى القائد (مارشيلّو) برسالة سرية ، لا يدرى هو نفسه فحواها .. أقسم لك يا مولاى إن هذا كل ما أعرفه .. أقسم لك ..

شعر بالصدق فى كلماتها ، وفى دموعها الغزيرة ، التى بلّلت قدميه ، فدفعها بعيدًا فى قسوة ، وهو يقول :

ـ سأصدّقك هذه المرة .

بكت (بالوما) فى انهيار ، وهى تقول :

ـ ستقتلنى مولاتى الملكة ، لو علمت أننى أبلغتك بهذا يا مولاى .



صفعها بكل قوته ، صارخًا :

ـ بل تعلمين أيتها الكاذبة اللعينة ..

التقط الملك كأسه ، وارتشف رشفة أخرى من الخمر ، قبل أن يقول فى لا مبالاة :

ـ لن تعلم .

جففت (بالوما) دموعها ، وهى تقول :

ـ أشكرك يا مولاى .. أشكرك كثيرًا .

قاطعها فى صرامة :

ـ بشرط واحد .

خفق قلبها مرة أخرى فى هلع ، وهى تقول :

ـ أى شرط يا مولاى ؟

أشار بيده إشارة صارمة ، وهو يقول فى حزم :

ـ أريد أن أعلم لماذا أرسلت الملكة إلى (مارشيلّو) .

تمتمت :

ـ سأحاول يا مولاى .. سأبذل قصارى جهدى .

أشار إليها بالانصراف ، فأسرعت تغادر المكان ، وهى تتعثر فى مشيتها ، وقلبها يرتعد بين ضلوعها ، فى حين عاد الملك يتطلع إلى الشمس ، وهو يغمغم :

ـ ترى ماذا تدبرين يا (إيزابيلا) ؟

وجرع ما تبقى من كأسه ..

ودفعة واحدة ..

★ ★ ★

« ها هى ذى (قرطبة) .. » .

نطق (جلال) بالعبارة ، وهو يلهث فى شدة ، بعد أن ظل يعدو مع (فارس) بجواديهما طوال الليل ، واستطرد وهو يجذب العنان ، ليخفّف من سرعة الجواد :

ـ كم أتوق لدخولها ، حتى أحصل على قدر من الراحة ، ويحصل جوادى على بعض الماء والعشب الطازج .

سأله (فارس) ، وهو يتطلّع من بعيد إلى إجراءات الدخول والخروج من المدينة :

ـ هل تعتقد أنـه من السهل أن ندخل (قرطبـة) ؟.. من الواضح أنهم يتشدّدون فى تفتيش ومراقبة الداخلين إليها .

ابتسم (جلال) فى إرهاق ، وهو يقول :

ـ دعهم يتشدّدون ، فلن ندخل المدينـة من بابهـا الرئيسى ، وإنما سنتسلّل إليها من مكان آخر .

سأله (فارس) :

ـ وكيف هذا ؟

ضحك (جلال) ، وهو يقول :

ـ المال يفتح كل الأبواب المغلقة يا فتى .

وكان على حق تمامًا ، فقد بلغ مدخلًا خفيًا ، فى أحد أركان المدينة ، ونقد حارسه عشر قطع ذهبية ، فسمح لهما بالدخول دون سؤال ، ولم تمض دقائق حتى كانا يجوّلان داخل المدينة ، وقال (فارس) فى تعب واضح :

ـ أعتقد أننى أشاركك رغبتك ، فى الحصول على بعض الراحة .

أجابه (جلال) ، وهو ينحرف بجواده إلى أحد الشوارع الجانبية ، على مقربة من السوق :

ـ لن يطول بك الانتظار .

سارا عدة أمتار ، حتى بلغا متجرًا صغيرًا ، جلس أمامه شيخ مسن ، انهمك فى صنع بعض السلال الصغيرة ، فابتسم (جلال) ، وهو يقول :

ـ ألم تمل بعد صناعة تلك السلال يا (عائد) ؟

رفع الشيخ عينيه إلى (جلال) ، وتهلّلت أساريره ، وهو ينهض هاتفًا فى سعادة حقيقية :

ـ مرحبًا .. مرحبًا .. أهلًا بك فى دارك يا (ابن العربى) .

هبط (جلال) عن جواده ، وتعانق الرجلان فى حرارة ، ثم سأل (عائد) ، و (فارس) يهبط بدوره :

ـ أية رياح طيبة ألقت بك هنا يا صديقى ؟

أجابه (جلال) فى صوت خافت :

ـ إنها ليست رياحًا طيبة فى الواقع يا (عائد) .. لقد حدث الصدام ، الذى كنا نتوقّعه منذ زمن ، ولم تعد (شقندة) تصلح لإقامتى .

عقد (عائد) حاجبيه ، وهو يقول :

- آه .. حانت لحظة المواجهة .. فليكن .. لا تقلق يا (جلال) .. منزلى رهن إشارتك كما تعلم، وأهلى هم أهلك .

ابتسم (جلال)، وهو يقول :

- أعلم هذا يا رجل .. أعلم هذا .

ثم أشار إلى (فارس)، مستطردًا :

- المهم أن هذا الفتى هنا لمهمة خاصة وسرية للغاية .. هل يمكنك أن تعاونه ؟

هتف (عائد) فى حماس، وهو يتطلّع إلى (فارس) :

- هل تسألنى ؟.. حياتى فداء (الأندلس)، هل نسيت أيام الـ...

وبتر عبارته بغتة، وارتجفت يداه، وهو يحدّق فى وجه (فارس)، قبل أن يهتف :

- رباه !.. إنه .. إنه ..

ابتسم (جلال)، وهو يغمغم :

- هل تعرّفته ؟

صاح الشيخ وعيناه تترقرقان بالدموع :

- ومن يمكنه ألا يفعل ؟.. إنه صورة منه ..

ثم همّ بالانحناء، هاتفًا :

- مولاى .

أمسكه (فارس) بسرعة، ومنعه من الانحناء، قائلًا :

- عفوًا يا عمّاه .. المرء لا ينحنى إلا للخالق (عزّ وجلّ) .

أجابه الشيخ، وجسده كله يرتعد من الانفعال :

- طبعًا يا مولاى .. طبعًا .

ثم هتف بهما :

- اتبعانى .

دار حول متجره، وقادهما إلى منزله، وهتف بخدمه :

- لدينا ضيفان، لهما كل ما لأهل الدار من حقوق .. أعدّوا الطعام والشراب بسرعة .

قال (جلال) فى إرهاق :

- ليس الآن يا (عائد) .. لقد انطلقنا بجوادينا طوال الليل، وهذا الفتى لم يغمض له جفن منذ يومين .. امنحنا مكانًا نستلقى فيه أوّلًا، ولندع الطعام والشراب لما بعد .

هتف (عائد) بسرعة :

أعدّوا حجرة للضيفين .

ولم تمض دقائق، حتى كان (جلال) و (فارس) يرقدان على فراشين متجاورين، فى حجرة هادئة أنيقة، وتثاءب (جلال) قائلًا :

- أخيرًا .. كاد ظهرى ينقسم، من شدة حاجتى للنوم .

تطلّع (فارس) إلى سقف الحجرة، وهو يغمغم :

ـ هل كنت تعرف والدى جيدًا يا سيِّد (جلال) ؟

أجابه الرجل :

ـ أعرفه ؟!.. لقد نشأنا معًا منذ حداثتنا يا فتى، وكنا خير رفيقين طوال طفولتنا وصبانا وشبابنا .

سأله (فارس) فى لهفة :

ـ وكيف كان أبى ؟

تنهَّد (جلال) ، قبل أن يقول :

ـ رحم الله والدك يا فتى، فقد كان أشجع الفرسان ، وأفضلهم، ولو كان هناك عشرة مثله ، فى (الأندلس) كلها ، لما فقدنا أكثر من ثلاثة أرباعها حتى الآن ، إنه أصدق من عرفت ، وأكثرهم رجولة وشهامة ، و ...

ولم يسمع (فارس) ما يقوله (جلال) ؛ فقد هزمه النوم أخيرًا ، وأسقطه فى سبات عميق ، وعلى شفتيه ابتسامة ..

ابتسامة فخر ..

★ ★ ★

عندما استيقظ (فارس) من نومه ، كانت الشمس قد بدأت رحلة المغيب ، فهبَّ من فراشه ، مغمغمًا :

ـ يا إلهى !.. لقد قضيت اليوم كله نائمًا .

وارتدى ثيابه على عجل ، ثم غادر الحجرة إلى ساحة القصر ، وهناك وجد (جلال) و (عائد) يتسامران ، حول صينية الطعام ، فهتف به الأخير :

ـ مرحبًا يا مولاى .. أتعشَّم أن تكون قد حصلت على قسط كاف من النوم .

جلس (فارس) ، وهو يقول :

ـ لقد نمت أكثر مما ينبغى يا سيِّدى ، فقد خسرت النهار كله .

قال (جلال) فى تعاطف :

ـ كنت تحتاج إلى هذا النوم يا ولدى ، وإلا فلن يمكنك أن تواصل مهمتك قط .

هزَّ (فارس) رأسه ، وهو يقول :

ـ أنت على حق يا سيِّد (جلال) .

ابتسم (عائد) فى حنان ، وهو يقول ، مشيرًا إلى الصينية :

ـ والمرء يحتاج إلى الطعام أيضًا ليحيا .

راحوا يتناولون الطعام معًا ، وسأل (فارس) :

ـ هل توجد وسيلة لدخول قصر ملك القشتاليين ؟

بهت الرجلان ، وتوقفا عن تناول الطعام ، قبل أن يسأله (جلال) فى قلق :

- هل تفكّر فى دخول القصر ؟

هزّ (فارس) كتفيه ، وقال :

- لا توجد وسيلة أخرى للحصول على المعلومات .

تبادل (جلال) و (عائد) نظرات متوترة ، قبل أن يغمغم الأخير :

- هل تدرك خطورة هذا يا مولاى ؟

قال (فارس) بسرعة :

- أرجوك يا عماه .. لا تخاطبنى بهذا اللقب ، فربّما كان والدى أميرًا لـ (قرطبة) ، ولكننى لست كذلك ، أما بالنسبة لخطورة الدخول إلى القصر ، فأنا أدركها بالطبع ، ولكننى أدرك أيضًا أن المهمة التى أسندت إلىّ بالغة الخطورة ، ولقد قبلتها وأنا أعلم هذا .

تنهّد (عائد) ، وغمغم فى نشوة :

- وكأننى أستمع إلى مولاى الأمير .

ثم تنهّد مرة أخرى ، واعتدل مستطردًا :

- نعم يا ولدى .. عندى وسيلة لدخولك إلى القصر .

رفع (فارس) حاجبيه ، وهو يقول :

- عظيم .. أهى وسيلة مضمونة ؟

أومأ (عائد) برأسه إيجابًا ، وقال :

- مضمونة تمامًا ، فولدى هو المسئول عن نقل الماء العذب إلى القصر مرتين يوميًا ، مرة قبيل الفجر ، وأخرى عند الغروب ، ولا أحد يحصىَ كم قربة ماء يحملها على عربته فى كل مرة ، ويمكنك أن ترتدى زيًا مماثلًا لزى فرسان القصر ، فهم وحدهم يمتلكون حق التجَول فى المكان بحرية ، ثم تختفى داخل قربة فارغة ، وعندما يدخل ابنى بعربته إلى القصر ، ينتحى ركنًا مظلمًا ، ثم يخرجك من القربة ، وتجوّل داخل القصر كما يحلو لك .

هتف (فارس) :

- خطة رائعة يا عماه ..

ابتلع (جلال) قلقه وتوتره ، وهو يقول :

- فليكن .. إنها تبدو لى خطة معقولة .. سنقضى الليل فى دراستها ، و ...

قاطعه (فارس) بسرعة :

- خطأ يا سيِّد (جلال) .. ليس لدينا وقت لكل هذا ، فالشمس تميل إلى الغروب ، وموعد وصول الماء إلى القصر يقترب .

سأله (جلال) فى توتر :

ـ ماذا تعنى ؟

أجابه فى سرعة :

ـ أعنى أننى سأدخل القصر الليلة بإذن الله .

وكان قوله حاسمًا ..

وباترًا ..





٦ ـ الليل الطويل ..

استدار الملك (فرناندو) يتطلع إلى أحد فرسان القصر ، الذى دخل إلى جناحه الخاص على أطراف أصابعه ، وهو يتلفت حوله فى حذر ، وسأله الملك فى لهجة تحمل القليل من الاهتمام ، والكثير من التوتر :

ـ ماذا لديك يا هذا ؟

اقترب منه الفارس أكثر ، وهمس :

ـ القائد (مارشيلو) وصل إلى (قرطبة) يا مولاى .

انعقد حاجبا الملك فى حنق ، وقال :

ـ هل بلغ القصر ؟

أجابه الفارس :

ـ ليس بعد يا مولاى ، ولكنه فى طريقه إليه .. لقد سبقته إلى هنا ، وعلمت أن مولاتى الملكة قد تركت فارسًا لاستقباله ، عند الباب الخلفى للقصر ؛ ليحمله إلى جناحها سرًا ، دون أن يشعر أحد .

تمتم الملك غاضبًا :

ـ هكذا ؟!

ثم التفت إلى الفارس، مستطردًا :

ـ أخبرنى فور وصوله .

قال الفارس، وهو يمسك مقبض سيفه فى حزم :

ـ لو أمرنى مولاى، سأجتز عنقه قبل أن يعبر باب القصر الخلفى .

لوّح (فرناندو) بيده، وهو يقول فى حدّة :

ـ كلّا .

ثم أشاح بوجهه، مستطردًا :

ـ راقبه فحسب، وأبلغنى بتحركاته، ودع لى الباقى .

قال الفارس فى قوة :

ـ أمر مولاى .

أشار إليه الملك بالانصراف، ووقف يتطلّع لحظة عبر النافذة، قبل أن يقول فى غضب :

ـ فليكن يا (إيزابيلا) .. سنرى من منا الأكثر دهاءً، فى لعبة الملوك هذه .. سنرى .

★ ★ ★

انعقد حاجبا حارس بوّابة القصر فى غضب، وهو يهتف :

ـ لماذا تأخرت اليوم أيها الساقى اللعين ؟.. هل نسيت أننا نغلق الأبواب بعد غروب الشمس مباشرة ؟

أجابه ابن (عائد) فى هدوء بسيط، وهو يحثّ البغل الذى يجرّ عربة الماء، ليمضى إلى داخل القصر :

ـ كان هناك زحام حول البئر .

صاح الجندى فى حدة :

ـ زحام أو غير زحام .. لن نسمح لك بالعبور فى المرات القادمة، إذا ما تجاوزت الغروب .

توقّف الشاب، وقال فى لا مبالاة :

ـ هل أعود إذن ؟

هتف الجندى :

ـ آه .. ليقتلنى مولاى الملك، عندما لا يجد ماءً عذبًا ليشربه .. أليس كذلك ؟.. ادخل أيها الغبى .. ادخل ولا تفعلها مرة أخرى .

قاد الشاب العربة فى بساطة إلى ساحة القصر، وأفرغ قربته الأولى فى خزان الضباط، ثم ربّت على الثانية، وهمس :

ـ استعد يا سيّدى .. سنصل إلى منطقة مظلمة بعد لحظات .

وانحرف فى منطقة كثيفة الظلال، وتأنى فى ملء خزان الجنود، فى حين خرج (فارس) من القربة الفارغة، ووثب إلى الأرض، وعدّل ثياب فرسان القصر



في حين خرج (فارس) من القربة الفارغة ، ووثب إلى الأرض ، وعدَّل ثياب فرسان القصر .

التي يرتديها ، ثم سحب سيفًا من أسفل القرب ، ودسّه في غمده ، فبدا شديد الشبه بالفرسان القشتاليين ، وغمغم ابن (عائد) :

ـ وُفقك الله يا سيّدى .. ولكن هل لديك وسيلة للخروج من هنا ؟

أجابه (فارس) فى هدوء :

ـ لا تجعل هذا الأمر يقلقك .. انصرف أنت على بركة الله .

واصل الشاب عمله فى بساطة ، فى حين شدّ (فارس) قامته ، وبدأ يجوّل فى الساحة فى ثقة ، دون أن يحاول جندى واحد اعتراض طريقه ، وعيناه تجوبان المكان ، وتدرسانه فى سرعة ..

وفجأة ، لمح قائد القشتاليين (مارشيلّو) يتسلّل إلى داخل الساحة ، على نحو عجيب ، وكأنه لص زنيم ، وبصحبته أحد فرسان القصر ، يقوده فى توتر إلى جناح الملكة ، فغمغم (فارس) فى انفعال :

ـ فليقطع ذراعى إن لم تكن هناك مؤامرة تحاك هنا .

وتابع تحركات الفارس و (مارشيلّو) ، حتى غابا فى أحد الأبواب ، فتمتم وهو يدرس المنطقة مرة أخرى :

ـ قائد جيوش القشتاليين يتسلّل إلى هنا ، وإلى جناح الملكة بالذات !!.. من المؤكّد أن الأمر بالغ الخطورة .

وتحرك فى خفه نحو الجدار الخلفى لجناح الملكة ، ولكنه لم يكد يبلغه ، حتى التفت إليه جندى قشتالى من جنود الحراسة ، وأدى التحية العسكرية بسرعة ، عندما شاهد الزى الذى يرتديه (فارس) ، فعقد هذا الأخير كفيه خلف ظهره ، واتجه نحوه فى ثقة ، قائلًا بلغة قشتالية سليمة :

- أكل شىء على ما يرام أيها الجندى ؟

أجابه الجندى فى حسم عسكرى :

- نعم أيها الفارس .. كل شىء على ما يرام .

أومأ (فارس) برأسه ، على نحو يوحى بتقديره للأمر ، قبل أن يواجه الحارس مباشرة ، قائلًا :

- أخطأت يا رجل ، فبالنسبة لك ، ليس كل شىء على ما يرام .

ثم هوى على فكه بلكمة قوية ، مستطردًا :

- وستتأكد من هذا بنفسك .

كانت اللكمة قوية بالفعل ، حتى أنها ضربت الجندى بالجدار ، إلا أنه لم يفقد وعيه ، وإنما استل سيفه بسرعة ، وانقضّ على (فارس) ، هاتفًا :

- اللعنة !.. أنت جاسوس .

تفادى (فارس) ضربة السيف بقفزة جانبية ماهرة ، ثم لكم الرجل مرة ثانية فى معدته ، قائلًا :

- اخفض صوتك يا رجل .

ثم كال له أخرى فى فكه ، مستطردًا :

- سيسمعك الآخرون .

سقط السيف من يد الجندى ، ولكنه ظلّ محتفظًا بوعيه ، ولكم (فارس) لكمة قوية ، حاول هذا الأخير تفاديها ، ولكنها أصابت كتفه ، وآلمته بشدة ، فانحنى فى سرعة ، ولكم الحارس فى معدته مرة ثانية ، ثم اعتدل يحمله بكتفه بغتة ، وألقاه أرضًا فى عنف ، وركله فى وجهه بكل قوته ، هاتفًا بصوت خافت :

- افقد وعيك هذه المرة بالله عليك .

وكأنما أطاعه الرجل ، فقد فَقَدَ وعيه بالفعل ، مما جعل (فارس) يطلق زفرة ارتياح ، فيستند بظهره إلى الجدار ، متمتمًا :

- لقد أرهقتنى للغاية يا رجل .

ثم التفت يفحص الجدار بسرعة ، وشعر بالارتياح مع الأحجار ذات الأطراف البارزة ، وتشبث بها جيدًا ، ثم راح يتسلّق الجدار فى بطء ، متجهًا نحو نافذة الملكة ..

وفى اللحظة نفسها ، كانت الملكة (إيزابيلا) تستقبل القائد (مارشيلّو) فى جناحها الخاص ، وهى تبتسم قائلة :

- مرحبًا بك فى جناح الملكة يا (مارشيلّو) .

انحنى الرجل أمامها انحناءة كبيرة، حتى كاد رأسه يرتطم بالأرض، وهو يقول :

ـ أنا رهن إشارتك يا مولاتى .

تطلّعت إليه لحظة فى صمت، وكأنها تدرسه ببصرها، قبل أن تسأله :

ـ ما أحوال الجيش الآن يا (مارشيلّو) ؟

أجابها وهو يعتدل فى وقفة عسكرية :

ـ على خير ما يرام يا مولاتى .. الجنود يواصلون تدريباتهم، والعتاد والسلاح على أكمل وجه، ولا ينقصنا سوى إصدار مولاى الملك لقراره ببدء الهجوم .

التقطت الملكة نفسًا عميقًا، قبل أن تقول :

ـ ولكن لماذا اخترتم (لوشة) للهجوم ؟.. إنها لا تبدو لى مناسبة أبدًا .

قال الرجل فى دهشة :

ـ (لوشة) ؟!.. إنها مجرّد هدف للتمويه يا مولاتى، أما الهجوم الحقيقى فسيتم عند (البيرة) .

برقت عينا الملكة فى شدة، وخفق قلبها بين ضلوعها فى قوة، حتى أن أنفاسها تلاحقت على نحو واضح، جعل الرجل يعقد حاجبيه فى توتر، وقد أدرك الفخ الذى أوقعته فيه (إيزابيلا)، وتمتم :

ـ يا إلهى !

رفعت (إيزابيلا) رأسها فى اعتداد، وقالت فى حدة :

ـ ماذا دهاك يا قائد الجيوش ؟.. هل كنت تفكّر فى إخفاء الأمر عن الملكة ؟

أجابها بسرعة :

ـ مطلقًا يا مولاتى .

ثم استدرك فى توتر :

ـ ولكن مولاى الملك ..

قاطعته غاضبة :

ـ لا شأن لك بمولاك الملك .. إنك هنا فى حضرة الملكة .

رفع (مارشيلّو) رأسه، وقال بسرعة :

ـ وما الفارق بين الملك والملكة ؟

ألجمها قوله، وعقد لسانها فى حلقها، فلاذت بالصمت لحظات ..

وفى تلك اللحظات، بلغ (فارس) حاجز النافذة ..

لم يكن لسوء حظه ـ قد استمع إلى الجزء الأوّل من الحديث، لذا فقد التصق بحاجز النافذة، وتشبّث به فى قوة، وهو يرهف سمعه، فى محاولة لالتقاط ما يدور فى جناح الملكة، التى ارتفع صوتها، وهى تقول :

ـ لا شأن لك بما يدور بين الملك والملكة .. هذه أمور عليا ، لا تفقه فيها شيئًا .

غمغم (مارشيلّو) فى ارتباك :

ـ معذرة يا مولاتى ، ولكننى قائد الجيوش ، والمفروض أن أدين بالولاء للملك والملكة فى آن واحد ، وليس لأحدهما دون الآخر .

صمتت الملكة لحظات ، قبل أن تقول فى شموخ :

ـ ومن طالبك بالتخلّى عن ولائك للملك ؟.. كل ما فعلته هو أن استخدمت حقى ، فى معرفة المكان ، الذى سيبدأ منه الهجوم الشامل على العرب .

حفّزت عبارتها الأخيرة كل خلية فى جسد (فارس) ، فاقترب فى حرص من فراغ النافذة ، ليرهف سمعه أكثر وأكثر ، و ...

وفجأة ، دوت تلك الصيحة ، التى انتفض لها كيانه كله ..

صيحة هادرة ، تصرخ :

ـ ماذا تفعل هنا ؟

وكانت صدمة ..

صدمة عنيفة ..

★ ★ ★

للوهلة الأولى ، تصوَّر (فارس) أن تلك الصيحة موجَّهة إليه ، وأن أحدهم انتبه إلى وجوده ، فصاح محذّرًا ومهدِّدًا ، وانتفض جسده كله ، إلا أنه لم يلبث أن أدرك أن تلك الصيحة كانت تأتى من الداخل ..

من جناح الملكة ..

أما الملكة و (مارشيلّو) ، فقد اتسعت عيونهما فى ارتياع ، وهما يحدقان فى وجه الملك (فرناندو) ، الذى اقتحم جناح الملكة فى شراسة عجيبة ، ارتسمت ممتزجة بالغضب ، فى كل خلجة من خلجات وجهه المحتقن ، من كثرة ما شرب من خمر ، وهو يستطرد :

ـ ما الذى حدا بك إلى دخول جناح الملكة ، قبل أن تقدّم فروض الطاعة والولاء للملك ؟

شحب وجه (مارشيلّو) بشدة ، وتراجع مغمغمًا :

ـ مولاى .. إننى ..

قاطعته الملكة فى حزم ، وقد استعادت رباطة جأشها :

ـ أنا طلبت منه هذا .

التفت إليها الملك فى غضب ، قائلًا :

ـ أنت طلبت منه هذا .. يا للسخرية !.. الملكة تطلب من قائد الجيوش تجاهل الملك !.. ماذا يمكننا أن نسمى هذا ؟.. خيانة عظمى ، أم غباء ورعونة ؟

هتف (مارشيلّو) :

- مولاى .. لقد أتيت إلى هنا ، متصوّرًا أن كل شىء يحدث تحت علم مولاى الملك وبموافقته .

لوّح الملك بذراعه ، صارخًا :

- بموافقته ؟!.. وهل يدعوك الملك إلى التسلل للقصر كاللصوص ؟

أجابه بسرعة :

- ربّما ، فمقتضيات الحرب قد تشير إلى أن هذه هى أفضل وسيلة لخداع العدو ، وليس أمامى سوى الطاعة .

كان جوابه منطقيًا ، مقنعًا ، مفحمًا ، حتى أن الملك لم يستطيع التعقيب ، على الرغم من رائحة الخمر التى تملأ عقله ، فتوقّف صامتًا لحظة ، قبل أن يقول ، متوجهًا ببصره وحديثه إلى الملكة :

- أما زالت الملكة تحتاج إلى وجود قائد الجيوش ؟

أجابته فى تعال :

- كلّا .

التقط نفسًا عميقًا ليكظم غيظه ، قبل أن يلتفت إلى (مارشيلّو) ، قائلًا :

- عد إلى جيوشك إذن ، واعمل على تنظيمها وترتيبها ، واستعد لبدء الهجوم ، بعد ثلاثة أيام .

انحنى (مارشيلّو) قائلًا :

- أمر مولاى .. أمر مولاتى .

ثم أسرع يغادر جناح الملكة فى توتر ، خشية أن يتراجع الملك فى قوله ، فى حين وقف (فرناندو) يواجه (إيزابيلا) ، قائلًا فى حنق :

- ألن تكف الملكة عن هذا العبث الصبيانى ، ونحن على شفا حرب طاحنة ؟!

قالت فى حدة :

- سأكف عندما يبدأ (فرناندو) العنيد فى التعامل كملك محترم .

صرخ فى وجهها .

- أنا ملك محترم على الرغم من أنفك .

صاحت بدورها :

- الملك المحترم لا يتعامل مع الملكة باعتبارها جاسوسة لا تستحق الثقة ، ولا يخفى عنها أن الهجوم الشامل سيبدأ فى (البيرة) ، وليس فى (لوشة) .

وخفق قلب (فارس) فى قوة ، وهو يسمع هذه العبارة الأخيرة ..

لقد حصل على كل ما جاء بشأنه ..

موعد ومكان الهجوم ..

وفى حرص ، بدأ (فارس) يهبط من موضعه ، قبل أن تتعقد الأمور ، ولم تمض دقيقة واحدة ، حتى كانت قدماه قد لامستا الأرض ، وبدأ يتحرك مبتعدًا ، و ...

« جاسوس .. جاسوس فى القصر .. » .

انطلقت تلك الصيحة من خلفه ، وفى الثانية التالية مباشرة ، كان جندى الحراسة ينقضّ عليه من الخلف ، ويحيط وسطه وذراعيه بساعديه فى قوةٍ ، مستطردًا :

ـ النجدة يا رجال .

كان الحارس قد استعاد وعيه بسرعة ، ووجد (فارس) أمامه ، يهمّ بالانصراف ، ففعل ما فعل ..

وكانت مفاجأة حقيقية لـ (فارس) ، ولكنها لم تشلّ حركته ، أو قدرته على التفكير ، فقد تحرَّك فى سرعة ، ودفع قدمه إلى الخلف ، ليركل الرجل فى ساقه ، ثم مال إلى الأمام فى حركة مباغتة ، وحمل الحارس فوق ظهره ، ثم ضرب برأسه الحائط فى عنف ..

وتراخت ذراعا الحارس ، مع الدوار العنيف الذى أصابه ، فأفلت منه (فارس) ، ولكنه رأى ثلاثة من الجنود القشتاليين يندفعون نحوه ، فى نفس اللحظة التى أطلّ فيها الملك ، من نافذة جناح الملكة ، وصاح :

ـ ماذا يحدث فى الساحة ؟!



وخفق قلب (فارس) فى قوة ، وهو يسمع هذه العبارة الأخيرة ..
لقد حصل على كل ما جاء بشأنه ..

استلّ (فارس) سيفه بسرعـة ، واستقبل سيوف القشتاليين الثلاثة ، فضرب سيف أحدهم فى عنف ، وقفز يركل الثانى فى صدره ، ويغمد سيفه فى ذراع الثالث ..
وصرخ الملك :
- اقبضوا على الجاسوس .
ومع صرخته ، رأى (فارس) أكثر من عشرين رجلًا يندفعون نحوه ، معظمهم من جنود الحراسة ، وبينهم خمسة من فرسان القصر ..
وتراجع (فارس) بسرعة ، وهو يضرب سيف القشتالى الثالث هاتفًا :
- كنت أود مقارنة مهارتى بمهارتكم ، ولكن ..
ووثب إلى الخلف ، فوق بناء قصير ، مستطردًا :
- أنتم ترفضون المنافسات الشريفة .
وانطلق يعدو فوق ذلك البناء الصغير ، ويتسلّق سلمًا قصيرًا ، يقود إلى أعلى الأسوار ، وأحد الفرسان يهتف :
- حاصروه يا رجال .. لاتسمحوا له بالفرار من الأسوار .
كانت حافة السور ، التى يعدو فوقها (فارس) ضيقة ، ولكن بعض القشتاليين حاولوا اعتراض طريقه فوقها ، فاشتبك معهم فى مبارزات سريعة ، كان النصر فيها لسيفه القوى ، ولكن الفرسان حاصروه من جانبى السور ، وقال له أحدهم شامتًا :

- وقعت أيها الجاسوس .. لن تفلت منا قط .
ولكن (فارس) التقط لفة من الحبال ، ملقاة إلى جوار السور ، وربط أحد طرفيها برمح أحد الجنود ، والفرسان يجرون نحوه هاتفين :
- لن تفلت .
وفى هدوء عجيب ، ألقى (فارس) الرمح ، الذى شقّ سماء القصر ، جاذبًا الحبل خلفه ، حتى مرق بين قائمين واسعين ، فى أعلى برج الملك الخاص ، وهنا جذبه (فارس) فى قوة ، فتعلّق الرمح فى القائمين ، فى نفس اللحظة التى أصبح فيها الفرسان قاب مترين أو أدنى من (فارس) ، الذى هتف :
- دعونا نؤجّل النزال المباشر لما بعد .
ثم وثب من حافة السور ، متعلقًا بالحبل ، وطار جسده فى الفراغ ، بامتداد الحبل ، حتى قفز على الجانب الآخر للسور ، فصاح الملك غاضبًا :
- ماذا أصابكم يا فرسان القصر ؟!.. هل عجزتم عن اصطياد عربى واحد ؟!
اندفع الفرسان نحو الجانب الآخر للسور ، ورأوا (فارس) يعتليه بوثبة مرنة ، ثم يلتفت إليهم قائلًا :

ـ الشيخ الذى تولّى رعايتى وتربيتى ، له حكمة رائعة .. انطلق دائمًا إلى حيث لا يتوقع أحد ذهابك .

صوّب بعض القشتاليين سهامهم إليه ، وهو يستطرد :

ـ إلى لقاء آخر يا فرسان قشتالة .

أطلق القشتاليون سهامهم نحوه ، ولكنه تفاداها بأسلوب لم يخطر لأحدهم قط ..

لقد قفز من سور القصر إلى الخارج ..

من ارتفاع سبعة أمتار ..

وبلا تردّد .

* * *



٧ ـ ما بعد السّر ..

انتفض جسد (مهاب) بغتة فى عنف ، وهو يستعيد وعيه ، فهبّ جالسًا على فراشه ، وهو يهتف :

ـ (فارس) .

شعر بآلام مبرحة فى كتفيه وظهره ، مع تلك الحركة السريعة ، فتأوّه فى خفوت ، وأضاف :

ـ أين أنا ؟!.. ماذا حدث ؟.. أين (فارس) ؟!

فوجئ بأمير (غرناطة) أمامه مباشرة ، يقول فى وقار :

ـ اطمئن يا (مهاب) .. أنت هنا فى قصرى .

اتسعت عيناه ، وحاول النهوض مغمغمًا :

ـ مولاى .

وضع الأمير يده على كتفه فى رفق ، ليمنعه من النهوض ، وهو يقول :

ـ رويدك يا قائد الفرسان ، لقد بذل طبيبنا جهدًا خرافيًا لينقذ حياتك ، ولست أظنه يسعد بإتلافك عمله الرائع .

قال (مهاب) فى أسف :

- لم أعد قائدًا للفرسان يا مولاى .. أنا الآن مجرَّد مقاتل سابق مسن، يبذل قصارى جهده لتنفيذ أوامر مولاه، ولكن القدر لا يسعفه ليفعل هذا .

أجابه الأمير فى حزم :

- لا تبخس نفسك قدرها يا (مهاب) .. كلنا نعلم أنك أفضل قائد فرسان عرفته (الأندلس) .

سأله (مهاب) :

- من أتى بى إلى هنا ؟.. وأين (فارس) ؟

شرد الأمير ببصره، وهو يجيب :

- (فارس) يواصل مهمته، أما أنت، فقد أصابك سهم فى ظهرك، من مسافة قريبة، وحملك (فهد) إلى هنا، ثم انصرف مسرعًا .

هتف (مهاب) :

- (فهد) .. آه .. كان ينبغى أن أتوقَّع هذا .

ثم استطرد فى ألم :

- ولكن كيف نترك (فارس) وحده فى (قرطبة) ؟.. سيواجه هناك خطرًا بالغًا .

قال الأمير فى حزم :

- لا تقلق بشأنه يا (مهاب)، فهذا الفتى قوى الشكيمة، حاضر الذهن، شجاع، وأنا واثق من أنه

سيؤدى مهمته على أكمل وجه، وسيبلغنا بموعد ومكان الهجوم فى الوقت المناسب، حتى يمكننا التصدِّى له .

غمغم (مهاب) فى ألم :

- وهل سنكتفى بهذا ؟

التفت إليه الأمير، وهو يقول فى دهشة :

- ماذا تعنى ؟

أجابه (مهاب) :

- أعنى أننا لو علمنا موعد ومكانَ الهجوم، سيمكننا أن نضع فخًا لجيوش (قشتالة)، ونوقعهم فى شر أعمالهم .

جلس الأمير على طرف فراشه، وهو يسأله فى اهتمام :

- كيف يا (مهاب) ؟

راح قائد الفرسان السابق يلوِّح بكفيه، وهو يشرح خطته قائلًا :

- سنحشد جيوشنا عند نقطة الهجوم، ونقسمها إلى ثلاث فرق .. واحدة فى المواجهة، وفرقتان إلى اليمين واليسار، وتفصل كل فرقة عن الأخرى مسافة خمسة كيلومترات .. وعندما يبدأ هجوم القشتاليين، تتحرَّك فرقتا اليمين واليسار إلى الأمام، وتعبران حدود القشتاليين بدورهما، ثم تلتفان لتطويق الجيش القشتالى، وتنقضان

عليه من الجانبين والخلف ، فى نفس اللحظة التى تبدأ فيها فرقة المواجهة هجومها ، وهكذا يسقط القشتاليون فى الفخ ، ويمكننا سحق جيشهم كله .

حدّق الأمير فى وجهه لحظة ، ثم نهض قائلًا :

ـ رائع .

ثم ابتسم مستطردًا :

ـ انهض يا قائد الفرسان .

عاد (مهاب) يتمتم :

ـ لم أعد قائدًا للفـ...

قاطعه الأمير :

ـ بل أنت قائد الفرسان يا (مهاب) .. فرسانى .

رفع (مهاب) حاجبيه فى دهشة ، هاتفًا :

ـ أنا يا مولاى .

أجابه الأمير فى حزم :

ـ نعم يا (مهاب) .. منذ هذه اللحظة أنت قائد فرسان (غرناطة) .. انهض لتقود جيوشنا ، وتتصدّى لجيوش القشتاليين .. انهض يا رجل لتلبىَ النداء بدورك .

واكتسى صوته بصلابة ، وهو يضيف :

ـ نداء (غرناطة) ..

★ ★ ★

وقف (عائد) و (جلال) على مقربة من القصر الملكى ، يراقبان الموقف فى قلق ، وغمغم الأوّل :

ـ هل تعتقد أن الفتى قد نجح فى مهمته ؟

قال (جلال) فى قلق واضح :

ـ ومن يمكنه الجزم بهذا ؟

تناهت إلى مسامعهما فجأة تلك الجلبة ، التى صحبت الكشف عن وجود (فارس) داخل القصر ، فهتف (عائد) :

ـ هناك شىء ما .. لقد كشفوا أمره .

شحب وجه (جلال) ، وهو يقول :

ـ رباه !.. وماذا يمكننا أن نفعل ؟

أجابه (عائد) فى انفعال :

ـ لا يمكننا أن نقف ساكنين ، ونتركه بين أيديهم .. لابد أن نفعل شيئًا .. أى شىء .. دعنا نستدع رجالنا ، ونحاول اقتحام بوّابة القصر ، أو ...

قاطعه (جلال) فى توتر شديد :

ـ أو ماذا يا رجل ؟!.. هل فقدت صوابك ؟!.. هل تعتقد أن حماقة كهذه يمكنها أن تفيد (فارس) ؟!.. كل ما سيحدث هو أن رءوس رجالنا ستعلّق على بوّابة القصر ، دون أن يتغيّر مصير الفتى .

ارتجف جسد (عائد) كله ، وهو يقول :

- ولكن لا يمكننا أن نتخلّى عنه .. لن يلقى مصير والده (رحمه الله) .

زفر (جلال) فى مرارة ، وغمغم :

- وماذا بيدنا لنفعله ؟.. إنه .

قاطعه (عائد) بغتة ، وهو يهتف :

- انظر هناك .

تطلّع (جلال) إلى حيث يشير (عائد) ، وارتفع حاجباه في دهشة مماثلة ، فقد وقع بصره على (رفيق) ، بلونه الأبيض الشاهق ، وهو يعدو نحو أسوار القصر ، وكأنما يلبى هاتفًا خفيًا ، و ...

وفى نفس اللحظة ، وثب (فارس) من أسوار القصر .. وكان المشهد مدهشًا بحق ..

جسد (فارس) يهوى ، و (رفيق) يعدو نحوه ..

ثم وثب الجواد ، والتقى بفارسه ، الذى استقرّ على متنه فى تناسق مدهش ، وقبض على معرفته ، هاتفًا :

- انطلق يا (رفيق) .

ودون أن يتوقّف لحظة ، واصل (رفيق) طريقه ، مبتعدًا عن القلعة ، التى برز من بوّابتها عدد من رماة السهام ، أطلقوا سهامهم نحو الجواد وفارسه ، وصوت الملك يتعالى غاضبًا :



وكان المشهد مدهشًا بحق ..

جسد (فارس) يهوى ، و (رفيق) يعدو نحوه ..

ـ أوقفوا الجاسوس .. أوقفوه مهما كان الثمن .

وشقت سهام القشتاليين الهواء ، وتناثرت حول (فارس) وجواده ، ثم أطلق (رفيق) صهيلًا قويًا ، يحمل الكثير من الألم ، وانتبه (فارس) إلى ذلك السهم ، الذى انغرس فى فخذ الجواد ، فهتف :

ـ يا إلهى !.. (رفيق) .

ولكن الجواد البطل لم يتوقف ..

لقد واصل العدو ، على الرغم من السهم فى فخذه ، وانحرف إلى شوارع المدينة الضيقة ، وقفز من شارع إلى آخر ، حتى بلغ منزل (عائد) ، فأسرع الخدم يستقبلونه مع (فارس) ، ويغلقون الأبواب خلفهما ، وسألهم (فارس) ، وهو يقفز إلى الأرض :

ـ أين السيِّد (عائد) والسيِّد (جلال) ؟

أجابه الخدم :

ـ لم يعودا بعد .. ولكن جوادك مصاب يا سيِّدى ، ويحتاج إلى عناية خاصة .

سألهم (فارس) فى قلق :

ـ أيجيد أحدكم العناية بالجياد ؟

فوجئ بالجواب يأتيه فى صوت أنثوى رقيق ، يقول :

ـ أنا أجيد هذا .

التفت (فارس) إلى مصدر الصوت ، وخفق قلبه فى عنف ، وهو يتطلَّع إلى أجمل وأرق فتاة رآها فى حياته كلها ..

كانت سمراء فاتنة ، لها عينان شديدتا السواد ، وأنف وفم دقيقان رقيقان ، وشعر فى لون الليل الحالك ، ينسدل كشلال ناعم على ظهرها ، على الرغم من المنديل الوردى الرقيق ، الذى عقصت به قمته ، خلف رأسها تمامًا ..

وفى ثوب من نفس اللون ، يتهادى معها فى مشيتها . اقتربت الفتاة من (فارس) ، وواصلت حديثها بتلك الرقة الآسرة :

ـ اتركه لى ، وسأعرف كيف أداويه .

لم يشعر فى حياته كلها بقلبه ينبض دافئًا ، مثلما شعر فى هذه اللحظة ، وهو يسألها بصوت خافت ، وكأنما يخشى أن يمزِّق ارتفاعه غلافها البالغ الرقة والنعومة :

ـ هل تجيدين التعامل مع الخيول ؟

أجابته وهى تمرِّر أصابعها على عنق (رفيق) فى رقة مدهشة :

ـ بل أعرف كيف أداويهم بإذن الله تعالى .

ثم أشارت إلى الخدم ، مستطردة :

ـ أعشابى الخاصة .

غاب أحدهم بضع لحظات ، وعاد يحمل بعض الأعشاب الجافة ، مع أخرى منقوعة فى الماء ، فأشارت الفتاة إلى السهم ، وهى تسأل (فارس) :

ـ هل يمكنك أن تنتزعه بسرعة ؟

أجابها (فارس) كالمسحور :

ـ بالطبع .

وفى حركة سريعة ، انتزع السهم من فخذ (رفيق) ، الذى أطلق صهيلًا قويًا ، ولكن الفتاة أسرعت تدسّ بعض الأعشاب الجافة فى موضع الإصابة ، وهى تقول فى رقة مدهشة :

ـ اهدأ أيها الجواد .. اهدأ .. كل شىء على مايرام .. اهدأ .

ثم راحت تصب الأعشاب المنقوعة على الجرح فى رفق ، وتدعكه بأصابعها فى حركة رقيقة منتظمة ..

وفى نفس اللحظة ، وصل (جلال) و (عائد) ، وهتف الأخير :

ـ حمدًا لله .. لقد نجوت إذن يا ولدى .. لقد رأينا ما فعلته مع جوادك المدهش .. كنتما رائعين .

ثم انتبه إلى ما تفعله الفتاة ، فاستطرد فى انزعاج :

ـ هل أصيب الجواد ؟

اجابه (فارس) :

ـ نعم .. وأعتقد أن إصابته تمنعه من العدو لفترة .

قالت الفتاة فى رقة :

ـ هذا صحيح .. إنه يحتاج إلى الراحة لأسبوع على الأقل ، حتى يشفى تمامًا .

وهنا تهللت أسارير (عائد) وقال :

ـ عظيم .. ما دامت ابنتى (همسة) تقول هذا ، فهى واثقة من أنه سيشفى بإذن الله .

ردّد (فارس) ، وقلبه يخفق فى قوة :

ـ ابنتك (همسة) .

ويبدو أن صوته قد حمل شيئًا من مشاعره إلى أذنى الفتاة ، فقد تخضّب وجهها بحمرة الخجل ، فتضاعفت فتنتها على نحو رائع ، وأشاحت بوجهها فى رقة مدهشة ، ولكن (جلال) قال فى توتر :

ـ ولكن ينبغى أن تختبئ بسرعة يا ولدى ، فسيجن جنون القشتاليين ، لأنك نجحت فى دخول قصر مليكهم ، وسيقلبون (قرطبة) رأسًا على عقب بحثًا عنك ، ولن يمضى وقت طويل ، حتى تجدهم أمامك هنـــا ؛ فأوّل ما سيفعلونه حتمًا ، هو تفتيش ديار العرب .

انتزع (فارس) نفسه من مشاعره ، وهو يقول :

- هذا صحيح .. دعونا نرسل واحدة من الحمام الزاجل إلى (غرناطة)، لنبلغهم بموعد ومكان الهجوم، وبعدها اختبئ، و ...

قاطعه (عائد) فى شحوب :

- ولكن .. ولكن ليس لدينا أى حمام زاجل من (غرناطة) يا ولدى .

انعقد حاجبا (فارس)، وهو يقول :

- فى هذه الحالة، لابد لى من الرحيل فورًا .

غمغم (عائد) :

- ألا تنتظر قليلًا ؟

أجابه فى حزم :

- بل كلما أسرعت بالرحيل، كان هذا أفضل للجميع، ولكننى سأحتاج إلى جواد آخر، يمكنه العدو حتى أقرب مدينة، أجد فيها حمامًا زاجلًا غرناطيًا، لدى أحد رجالنا .

ثم التفت إلى (همسة)، وانخفض صوته بغتة، وزالت منه رنة الحزم، وهو يستطرد :

- اعتنى بجوادى جيدًا ؛ فسأعود إليه، و ...

بتر عبارته بغتة، ولكنها فهمت ما يقصده ..

فهمت أنه أراد أن يضيف : « وإليك » ..

وعاد وجهها يتخضب بحمرة الخجل، وقلبها يخفق فى قوة، و ...

« هيًا يا ولدى » .

قطع (جلال) هذا الفيض العاطفى الصامت، وهو ينطق تلك العبارة فى توتر، فالتفت إليه (فارس)، وقال :

- هيًا بنا يا سيد (جلال) .

عانق (عائد) (فارس)، وهو يقول :

- فليحمك الله يا ولدى .. فليحمك الله (سبحانه وتعالى) .

امتطى (فارس) جوادًا، وتبعه (جلال)، وانطلق الاثنان فى شوارع المدينة، فى محاولة للفرار من القشتاليين ..

وفى توتر، قال (جلال) :

- سنتجه إلى نفس المخرج الفرعى، الذى دخلنا منه إلى (قرطبة)، ولكن هذا يحتاج منا إلى قطع الطريق الرئيسى، المجاور للسوق مباشرة، وأعتقد أننا سنجد القشتاليين هناك .

أجابه (فارس) فى حزم :

- مادام هذا هو طريقنا الوحيد، فسنقطعه على بركة الله .

انطلقا نحو الطريق الرئيسى ، وهما يدركان أن النيران تشتعل الآن فى قلوب القشتاليين ، وأنهم لن يهضموا بسهولة فكرة وجود جاسوس عربى فى أرضهم ، وسيبذلون قصارى جهدهم لاصطياده ، ولكنهما يعلمان فى الوقت ذاته أنه من المحتم أن يغادرا ذلك المكان ، حتى يمكنهما إبلاغ (غرناطة) بما لديهما ..

ولم يكن هناك مفر من المضى قدمًا ، مهما كانت المخاطر ..

ولم تمض لحظات ، حتى كانا يقطعان الطريق الرئيسى ، وغمغم (جلال) :

ـ عجبًا !.. المكان يبدو أهدأ مما تصوَّرنا .

قال (فارس) ، وهو يدير عينيه فيما حوله :

ـ لا تجعل الظواهر تخدعك يا سيِّد (جلال) .. هذا ما علمنى إياه معلِّمى الشيخ ، فهو يقول : إن أشرس الثعالب ، هى التى تتطلَّع إليك دائمًا بعيون هادئة ، تحمل كل براءة الدنيا .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى برز القشتاليون فجأة من كل ركن ، وهم يطلقون صرخات مخيفة ، وينقضون على الفارسين ، فصاح (جلال) :

ـ إنه فخ .. فخ يا (فارس) .

واستلّ سيفه فى سرعة ، وهو يحصى القشتاليين ببصره ..

كانوا أكثر من عشرة من الجنود الأقوياء ، يلوِّحون بسيوفهم فى غضب شرس ، وتصدَّى لهم (فارس) ، وهو يقاتل فى بسالة ، ولكن اثنين منهم التفا حول (جلال) ، الذى صاح :

ـ لقد حاصرونى يا (فارس) .. إنهم ..

شهق بغتة ، قبل أن يتمّ عبارته ، عندما خدعه أحد القشتاليين بمناورة خبيثة ، وانقضّ عليه الثانى من الخلف ، وطعنه فى ظهره طعنة قاتلة :

وصرخ (فارس) :

ـ سيِّد (جلال) .

ولكنه رأى الرجل يسقط جثة هامدة ، فى حين اتجه كل القشتاليين إليه ، فراح يقاتلهم فى استماتة ، إلا أنهم حاصروه عند جدار أحد المنازل ، وارتفعت سيوفهم الغاضبة ، وهوت ..

هوت كلها على رأس (فارس) ..

فارس الأندلس .

* * *

٨ - الخروج من الجحيم ..

احتقن وجه الملك (فرناندو) فى شدة، وهو يهتف فى وجه الملكة (إيزابيلا)، فى غضب هادر :

- هل رأيت يا ملكة القشتاليين ؟.. الملك والملكة يتشاجران، ويفضحان بعضهما، والجواسيس يجولون فى القصر الملكى .

قالت فى شموخ :

- أنت المسئول عن كل هذا يا (فرناندو) .. لو أنك منحتنى ثقتك، وأخبرتنى أين سيكون الهجوم، لما سعيت لمعرفة هذا بنفسى .

لوّح بذراعه كلها، هاتفًا :

- ولكننى أرفض ذلك الأسلوب السخيف، الذى اتبعته للتوصل إلى هذا .

قالت فى حدة :

- أى أسلوب كنت تتوقّع إذن ؟.. أن أركع أمامك، وأرجوك أن تمنحنى ثقتك، وتخبرنى بالحقيقة ؟.. أنت أخطأت يا (فرناندو)، ودفعتنى الى هذا .. أنت المسئول .

صاح محنقًا :

- فليكن يا (إيزابيلا) .. أنا أخطأت .. ماذا فى هذا ؟.. هل ستطلقين على صدرى سهمًا مسمومًا .

عقدت حاجبيها فى شدة، وهى تقول :

- بل سأعلن أننى ضدك يا (فرناندو)، ولنر ما يفعله هذا .

أصابته عبارتها فى الصميم، وزلزلت كيانه حتى النخاع، فانعقد حاجباه فى شدة، وتطلّع إليها لحظات فى صمت، وهو يفكّر فيما يمكن أن يحدث، لو نفذت تهديدها الجنونى، إذ كان هذا كفيلًا بشق ولاء الجنود إلى نصفين، وربّما دفعهم إلى الاقتتال، والانشغال بمعركتهم عن الحرب المنتظرة ..

ثم إنه يعلم أن غنادها سيجعلها تصرّ على موقفها، ولن يمنعها من تنفيذ تهديدها الأحمق هذا، مهما كان الثمن ..

ومضت لحظات الصمت والتفكير فى سرعة، قبل أن يقول (فرناندو) فى حنق واضح :

- ماذا تريدين يا (إيزابيلا) ؟

أجابته فى صرامة :

- أريد أن تعتبرنى شريكتك فى العرش، ولست مجرّد ملكة بلا عرش .

غمغم، محاولًا أن يدفع بأكبر قدر من السخرية إلى كلماته :

ـ أهذا يكفيك ؟!

أجابت فى كبرياء :

ـ الآن على الأقل .

رمقها بنظرة غاضبة، ولكنه احتوى مشاعره فى أعماقه، على الرغم من تلك الرغبة التى ملأت نفسه، بكسر عنقها بلا رحمة، وغمغم :

ـ فليكن يا ملكة (قشتالة) و (ليون) .. فليكن .

ثم زفر فى عصبية، قبل أن يستطرد :

ـ فلنعتبر المشكلة قد انتهت بهذا القول، فالملكة الآن تعرف موعد ومكان الهجوم .. أقيمى الاحتفالات إذن، واتركى الملك يتفرَّغ لترتيب الأمور، والبحث عن ذلك الجاسوس الوقح، الذى اخترق تحصيناتنا، ووصل إلى القصر الملكى، ثم نجح فى الفرار منه .

قالها، واستدار لينصرف، ولكنها قالت فى عصبية :

ـ وهل سيتفرغ مولاى الملك لهذا فحسب !

سألها دون أن يلتفت إليها :

ـ ماذا تعنين ؟

قالت محنقة :

ـ أعنى أن الملك يشغل نفسه كثيرًا بمغازلة وصيفاتى .

تفجَّر غضب الدنيا كلها فى نفسه، وغلت الدماء فى عروقه، ولكنه قال فى صرامة :

ـ فلتصبحى على خير يا مولاتى الملكة .

وغادر جناحها، وصفق بابه خلفه فى حنق، ثم التفت إلى حارسه الخاص، الذى يقف فى انتظاره، وسأله :

ـ ماذا عن ذلك الجاسوس ؟

أجابه الحارس :

ـ انطلقت فرقة من رجالنا للبحث عنه، فى شوارع (قرطبة) يا مولاى .

سار الملك عبر الممر الطويل، الذى يربط جناحه بجناح الملكة، وهو يسأل :

ـ هل علموا كيف دخل إلى القصر ؟

هزَّ الرجل رأسه نفيًا، وهو يجيب :

ـ ليس بعد يا مولاى، ولكننا نرجح أن له شريكًا داخل القصر، عاونه على الدخول .

توقَّف الملك بغتة، وانعقد حاجباه لحظة، قبل أن يقول :

ـ بالطبع .. له شريك داخل القصر .

والتفت إلى الحارس، مستطردًا :

- وأنا أعرف هذا الشريك .
هتف الحارس فى دهشة :
- تعرفه يا مولاى ؟!
أجابه فى شىء من الدهاء :
- نعم .. إنه أحد فرسان القصر .
وامتلأت أعماقه بابتسامة ساخرة متشفية ، وهو يستطرد :
- (فارس) اسمه (بلانكو) .
وكانت هذه هى وسيلته الملكية لتحقيق ما يسعى إليه .. الانتقام ..

* * *

لم يكن هناك مخرج هذه المرة ..
لقد أحاط القشتاليون بـ (فارس) ، الذى يمتطى جوادًا ريفيًا ، لم يتمرّس قط على القتال ، وسيوفهم القوية تنقضّ عليه ، و ...
وفجأة ارتجّت (قرطبة) كلها بصيحة قتالية مخيفة ..
صيحة زلزلت كيان القشتاليين العشرة ، وجعلت دماءهم ترتجف فى عروقهم ، وقلوبهم تكاد تثب من حلوقهم ، وعيونهم تجحظ فى ارتياع ، مع رؤيتهم لما بدا لهم أشبه بقطعة من الليل ، تنفصل عنه بغتة ، وتثب نحوهم ، من فوق أقرب دار إليهم ..

وفجأة ، تمثّل أمامهم ذلك العملاق الزنجى المخيف .. (فهد) ..
وقبل أن يهتف (فارس) باسمه فى دهشة وسعادة ، كان سيف (فهد) يضرب الأعناق والصدور فى سرعة وقوة ، ودون أن يمنح خصومه لحظة واحدة لالتقاط أنفاسهم ، أو استيعاب الموقف والمفاجأة ..
وبسرعة البرق ، اشترك (فارس) فى القتال ، وهوى سيفه بدوره على الصدور والرءوس ..
ولم تستغرق المعركة أكثر من دقائق معدودة ، سقط بعدها القشتاليون العشرة على أرض (قرطبة) ، وهتف (فارس) :
- هيًا يا (فهد) .. دعنا نخرج من هنا .
أطلق (فهد) صفيرًا خافتًا ، فاندفع إليه جواده الأدهم ، من خلف أحد المنازل ، ووثب (فهد) على صهوته ، وانطلق مع (فارس) نحو المدخل الخلفى للمدينة ..
ولم يكن المخرج خاليًا هذه المرة ..
كان هناك ثلاثة من الجنود يحرسونه ، ولكن سيفى (فارس) و (فهد) أزاحاهم من الطريق فى لحظات ، عبر خلالها الاثنان ذلك المخرج ، وانطلقا يعدوان مبتعدين عن (قرطبة) ..

وهتف (فارس) :

ـ نجحنا يا (فهد) .. غادرنا (قرطبة) وأنا أحمل سر المعركة كلها .

ثم انعقد حاجباه بغتة ، وهو يستطرد :

ـ ولكن ماذا عن (مهاب)؟.. هل نجا ؟

تطلّع إليه (فهد) فى صمت ، ثم أشار إلى السماء ، فغمغم (فارس) :

ـ نعم .. فلترعه عناية الله (سبحانه وتعالى) .

انطلقا بجواديهما صامتين بعض الوقت ، ثم قال (فارس) :

ـ من الضرورى أن نبلغ (غرناطة) بموعد ومكان الهجوم ، ولكن الوقت ليس فى صالحنا : قل لى .. ما أقرب مدينة يمكننا أن نجد فيها أحد رجالنا ، ومعه زوج من الحمام الزاجل الغرناطى ؟

أشار (فهد) بيده ، وقال بصوته العميق :

ـ (جيان) ..

لم يدر (فارس) لماذا سرت فى جسده تلك القشعريرة ، وهو يسمع صوت (فهد) !..

لم تكن المرة الأولى التى يسمع فيها صوته العميق ، ولكن كل مرة يفتح فيها (فهد) شفتيه ، لينطق كلمة ما ، كانت تصنع فى نفسه التأثير ذاته ..

وتمتم (فارس) :

ـ فليكن يا (فهد) .. سننطلق إلى هناك .

ولكن (فهد) جذب عنان جواده فجأة ، واستدار به نصف استدارة ، ثم أرهف سمعه على نحو عجيب ، قبل أن يثب من على جواده ، وينحنى ليلصق أذنه بالأرض ، فسأله (فارس) :

ـ هل يطاردوننا ؟

أومأ (فهد) برأسه إيجابًا ، وأشار بأصابعه العشرة ، ثم تطلّع صوب (قرطبة) ، فغمغم (فارس) فى قلق :

ـ عشرة من الفرسان ؟!.. المفروض أن ننطلق بأقصى سرعة إذن ، حتى لا ندخل فى مبارزة معهم ، تعطلنا عن إبلاغ (غرناطة) .

اعتدل (فهد) ، وتطلّع إلى اتجاه (قرطبة) ، ثم التفت إليه ، وقال فى حزم صلب :

ـ اذهب .

عقد (فارس) حاجبيه ، وهو يقول :

ـ لن أذهب وحدى يا (فهد) .

كرّر (فهد) فى صلابة :

ـ اذهب إلى (صفوان) .



لم أرهف سمعه على نحو عجيب ، قبل أن يثب من على جواده ،
وينحنى ليلصق أذنه بالأرض ..

ثم استدار فى سرعة ، وهوى براحته على فخذ جواد (فارس) بكل قوته ، فأطلق الجواد صهيلًا قويًا ، وانطلق يعدو بكل سرعته ..

وفهم (فارس) بالضبط ما يفعله (فهد) ..

إنه يمنحه فرصة بلوغ (جيان) ، والاتصال بمن يُدعى (صفوان) هناك ، حتى يمكنه تحذير (غرناطة) قبل فوات الأوان ..

وسيتصدَّى (فهد) وحده للفرسان العشرة ..

فهم (فارس) هذا ، ولكنه لم يشعر بالخوف على (فهد) ..

بل شعر بالثقة ..

كل الثقة ..

ولم يفسد (فارس) خطة (فهد) ..

لقد انطلق بجواده بأقصى سرعته ، وقد وضع فى ذهنه فكرة واحدة ..

لابد من بلوغ (جيان) ، وإبلاغ (غرناطة) ، مهما كان الثمن ..

نعم ..

مهما كان الثمن ..

★ ★ ★

« مولاتى .. النجدة يا مولاتى .. » .

اقتحمت (بالوما) جناح الملكة، على نحو مخالف للقواعد واللياقة، وهى تهتف بتلك العبارة، فاعتدلت الملكة بسرعة، وسألتها فى توتر :

- ماذا هناك يا (بالوما) ؟

انهمرت الدموع أنهارًا من عينى الوصيفة الفاتنة، وهى تركع أمام الملكة، قائلة فى انهيار :

- (بلانكو) يا مولاتى .. (بلانكو) فارس القصر، وخادمك المخلص الأمين يا مولاتى .

هتفت بها الملكة :

- ماذا أصابه ؟

قالت (بالوما)، والدموع تخنق الكلمات فى حلقها :

- مولاى الملك ألقى القبض عليه، واتهمه بمعاونة ذلك الجاسوس المجهول على دخول القصر .

انعقد حاجبا الملكة فى شدة، وفهمت ما يرمى إليه الملك على الفور، وغمغمت فى غضب :

- إذن فأنت تعاقب كل من عاوننى يا (فرناندو) .

لم تسمع (بالوما) ما غمغمت به الملكة، وهى تتابع منهارة :

- إنه لم يفعل هذا يا مولاتى .. أقسم لك .. لقد كان معى طوال الوقت، أنا أعلم أنه لم يفعل هذا .

صمتت الملكة لحظات أخرى، ثم نهضت من مكانها، قائلة فى حزم :

- اتبعينى .

هرعت (بالوما) خلفها، هاتفة :

- أرجوك يا مولاتى .. أنقذيه من عقاب مولاى الملك .

عضت الملكة شفتيها فى مرارة، وهى تقطع ذلك الممر الطويل، ثم دخلت إلى القاعة الملكية، وخلفها (بالوما) بعينيها المحمرّتين الدامعتين، ورأت الملك يبتسم فى سخرية وشماتة، وهو يقول :

- مرحبًا بالملكة الورعة .. تقدّمى يا مولاتى، لتحضرى محاكمة ذلك الخائن .

قال (بلانكو) فى توتر :

- (بلانكو) ليس خائنًا يا مولاى .

رمقه الملك بنظرة ساخرة، وأفسح الطريق للملكة، التى تجاوزته فى كبرياء، واعتلت عرشها، وهى تقول :

- أين دليلك على خيانته يا مولاى ؟

ابتسم (فرناندو) فى سخرية، وهو يقول :

ـ لدى شهود يؤكدون أنه غادر القصر خفية ، منذ يومين ، وغاب عنه طويلًا ، ولم يعد إلا اليوم ، وهذا أكبر دليل على أنه يتعاون مع الجاسوس .

هتف (بلانكو) :

ـ كلا يا مولاى .. لست أنا من يخون (قشتالة) .. لقد غبت عن القصر فى مهمة خاصة .

رفع الملك حاجبيه فى دهشة مصطنعة ، وهو يقول :

ـ مهمة خاصة ؟!.. وما طبيعة هذه المهمة يا فارس القصر ؟!.. لست أذكر أننى أسندت إليك مهمة ما .

ارتبك (بلانكو) ، واضطرب ، وصرخ قلب (بالوما) فى ارتياع ، فى حين انعقد حاجبا الملكة فى توتر بالغ ، دون أن تنبس ببنت شفة ، حتى قال (بلانكو) فى عصبية :

ـ مولاتى .. أنت تعلمين أننى برىء .

صاح به الملك فى صرامة :

ـ دع مولاتك الملكة خارج القضية .

هتف (بلانكو) :

ـ ولكن يا مولاى .

قاطعه مرة أخرى فى حدة :

ـ قلت لك لا شأن للملكة بهذه المحاكمة ... المفروض أنك فارس من فرسان القصر ، والفرسان لا يغادرون القصر قط ، إلا بأوامر مباشرة من الملك ، ولا أحد يمكنه مخالفة هذا .

ثم التفت إلى الملكة ، قائلًا فى خبث :

ـ أليس كذلك يا مولاتى ؟

ارتبكت الملكة ، وامتلأت نفسها بالحنق ، وأدركت ذلك المأزق السخيف ، الذى وضعها فيه الملك ، أمام مجلس القضاء كله ، فلن يمكنها قط أن تعترف بأنها أسندت لذلك الفارس مهمة خاصة ، دون علم الملك ، إذ إن هذا سيثير عليها حفيظة مجلس الحكم كله ، وربما منعها من اتخاذ أية قرارات مستقبلية ..

ولم يكن أمام الملكة سوى حل واحد ..

أن تتخلى عن الفارس ..

أن تنسحب من القضية كلها ، حفاظًا على كرامتها الملكية ..

ودون أن تضيف حرفًا واحدًا ، نهضت الملكة من عرشها ، وسارت نحو باب القاعة الملكية ، فهتفت (بالوما) :

ـ مولاتى .

وهرعت خلفها بدموعها وذعرها ، فى حين تابعها (بلانكو) ببصره فى ارتياع ، وقد انبأه انصرافها عن المصير الذى ينتظره ..

وفى حدة ، هتف (بلانكو) :

ـ كنت فى مهمة خاصة ، بأمر من مولاتى الملكة شخصيًا يا مولاى الملك .

توقّفت (إيزابيلا) عند الباب، وتجمّدت في مكانها لحظة، والملك يهتف في دهشة مصطنعة شامتة :

ـ الملكة ؟!

استدارت (إيزابيلا) في بطء، وعيناها تحملان نظرة مقت هائلة، والتقت عيناها بعيني الملك لحظات في تحد وكراهية، قبل أن يسألها الملك :

ـ أهذا صحيح يا مولاتي ؟

تعلّقت عيون الجميع بشفتي (إيزابيلا)، التي ظلت جامدة صامتة لحظات، فهتف (بلانكو) في حدة :

ـ لا يمكن لمولاتي الملكة أن تنكر هذا .. لقد أرسلتني في مهمة خاصة، وبرسالة سرية إلى قائد الجيوش .. أليس كذلك يا مولاتي ؟.. أليس كذلك ؟

ولكن (إيزابيلا) أجابته في صرامة :

ـ كلّا .

شحب وجهه في شدة، وهو يردّد :

ـ كلّا ؟!

وهتفت (بالوما) :

ـ ربّاه !.. مولاتي .. ربّاه !

وفي صرامة أكبر، تابعت الملكة، وكأنها لم تسمع كل هذا :

ـ هذا الرجل كاذب، فأنا لم أره في حياتي من قبل .

اتسعت عينا (بلانكو) في ارتياع، وقد بدت كلمات الملكة أشبه بحكم بالإعدام، في حين أطلقت (بالوما) صرخة رهيبة، جعلت الملك يصرخ :

ـ أخرجوا تلك الوصيفة من هنا، وإلا قطعت لسانها .

أسرع الحراس يدفعون (بالوما) أمامهم في قسوة، في حين ظلّت الملكة صامتة شامخة، و (بلانكو) يهتف :

ـ لا يا مولاتي .. لا تقولي هذا .

ودون أن يبدو على وجهها أدنى انفعال، استدارت الملكة (إيزابيلا)، وغادرت القاعة الملكية في خطوات واثقة قوية، دون أن يطرف لها جفن، تاركة (بلانكو) خلفها، وهو يتلقّى الحكم ..

الحكم بإعدامه ..

★ ★ ★

لم يتوقّف (فارس) عن العدو بجواده لحظة واحدة طوال الليل، حتى أشرقت الشمس في وجهه، وهو يقترب من (جيان) ..

كان يلهث في شدة، وجواده غير المدرّب يكاد يسقط من فرط الإعياء، ولكن الحماس الكامن في أعماقه، ورغبته في إبلاغ (غرناطة) بما لديه، جعلاه يحتمل الكثير، حتى يبلغ المدينة ..

ولكن الشمس كانت تشرق فى مواجهته تمامًا ، وتغشى عينيه ، فلا يكاد يتبيَّن طريقه ، إلا أنه راح يتحدَّث مع ذلك الجواد ، كما كان يفعل مع (رفيق) ، وهو يقول :

ـ من الواضح أن (فهد) قد تغلَّب على خصومه ، فلست أرى قشتاليًا واحدًا خلفنا .

دمعت عيناه وهو يواجه الشمس ، ولكنه حاول أن يتجاهل هذا ، وهو يقول للجواد :

ـ حاول أن تحتمل قليلًا يا صديقى ، فالمدينة على مسيرة نصف الساعة فحسب ، وعندما نصل إليها ستحصل على كل ما تشتهيه نفسك من العشب والماء ، وسأرسل أنا رسالتى ، ثم ألقى جسدى على أقرب فراش ، وأنام ملء جفنىَّ .

لم يكن جسده يحتمل كل هذا الجهد ، إلا أنه لم يتوقَّف ، ولاحت له المدينة من بعيد ، فامتلأت نفسه بحماس إضافى ، وهو يهتف :

ـ هيَّا يا صديقى .. هيَّا .

ولكن عيناه نجحتا فى التصدِّى لأشعة الشمس بعض الشىء ، وبدت له بعض الظلال تتجه نحوه ، فغمغم فى قلق :

ـ ما هذا بالضبط ؟.. تبدو لى كفرقة من فرسان (قشتالة) .

وفجأة اتضحت الرؤية ..

كانت فرقة من فرسان (قشتالة) بالفعل ..

فرقة من سبعة فرسان ، يتجهون نحوه مباشرة ، بكامل عدتهم وعددهم ..

وسرى توتر عنيف فى جسد (فارس) ، وهو يقول :

ـ يبدو أنه لا مفرّ من القتال يا صديقى .

وجذب عنان الجواد فجأة ، وهو يستل سيفه فى حركة سريعة ، و ...

ولكن الجواد الريفى لم يحتمل هذا التغير المباغت ..

لقد تعثَّرت قوائمه ، وارتبك ، وسقط إلى الأمام فى عنف ، فطار جسد (فارس) من فوقه ، وارتطم بالأرض فى قوة ..

وغامت الدنيا أمام عينى (فارس) ، وهو يحاول النهوض ، وتناهى إلى مسامعه وقع حوافر جياد القشتاليين ، وهى تقترب أكثر وأكثر ، حتى توقَّفت إلى جواره ، وبدت له وجوه الفرسان القشتاليين ، وهم ينحنون نحوه ..

وأظلمت الدنيا تمامًا هذه المرة ، وسقط رأس (فارس) أرضًا ، و ...

وفقد وعيه بين الفرسان ..

فرسان الأعداء .

★ ★ ★



ولكن الجواد الريفى لم يحتمل هذا التغيير المباغت ..

لقد تعثرت قوائمه وارتبك ، وسقط إلى الأمام ..

٩ ـ الرسـالة ..

ارتفعت دقات عنيفة فى رأس (فارس) ، وتراءت له بعض الرؤى العجيبة ، شاهد فيها نفسه وسط حديقة غناء ، يتحرك فى خفة وسعادة ، ويثب من غوطة إلى أخرى ، تحيط به الأشجار الوارفة أغصانها ، والزهور من مختلف الألوان والأشكال والأنواع ..

ثم اشتهت نفسه ثمرة ناضجة ، تتدلّى من إحدى الأشجار ، فمدّ يده ليقطفها ، و ...

وفجأة ، لم تعد الثمرة ثمرة ..

لقد تحوَّلت بغتة إلى قلب نابض صغير ، يسيل منه الدم ، ويتقاطر على وجهه وصدره وأصابعه ..

وتراجع هو فى ارتياع ، وعاد يتلفَّت حوله ، ولكن كل شىء لم يعد كما كان ..

الأزهار أصبحت حرابًا وسهامًا وسيوفًا ..

الحديقة صارت خرابًا ودمارًا ..

وحاول أن يصرخ ..

حاول ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكن شيئًا لم يخرج من حلقه ..

لقد احتبست صرخته فى صدره ، وتحوَّلت إلى ثقل يجثم عليه ، وتحرَّكت من حوله عشرات الظلال ، التى راحت تتجسَّد شيئًا فشيئًا ، حتى صارت قافلة من الفرسان ..

فرسان قشتاليين يتجهون نحوه ، وسيوفهم تشترك مع عيونهم فى نظرة وحشية مخيفة ..

وقفزت يده لتستل سيفه ، ولكنها ارتدَّت إليه خائبة خاوية ..

لم يكن السيف هناك ..

بل لم يجد حتى غمده..

يده نفسها تثاقلت فى صعوبة ، كما لو أنها تحمل أطنانًا وأطنانًا من الصخور ..

وارتفعت سيوف القشتاليين هذه المرة ..

وهوت على عنقه ..

و ...

انفتحت عيناه بغتة فى حدة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، عندما شاهد الوجوه القشتالية المطلَّة عليه ، وهمَّت يده بالوثوب إلى سيفه ، عندما سمع أحدهم يسأله بلغة القشتاليين :

ـ أأنت بخير ، أيها الفارس الملكى ؟

انتبه فى هذه اللحظة فقط ، إلى أنه ما يزال يرتدى زى فرسان القصر الملكى ، وأدرك أن القشتاليين أخطئوا الأمر ، وتصوَّروا أنه أحد فرسان القصر ، فغمغم بلغتهم :

ـ لقد كبا جوادى ، فسقطت .

أدهشه وهو ينهض ، أنه مازال فى نفس المكان ، الذى فقد فيه وعيه ، وأن موضع الشمس يوحى بأنه لم تمض دقائق خمس على سقوطه ، ولكنه رأى الجواد على الأرض ، يطلق صهيلًا خافتًا مريضًا ، وسمع أحد القشتاليين يقول :

ـ لقد انكسرت قوائمه .. الأفضل أن نقتله(★) .

غمغم (فارس) :

ـ ولكننى أحتاج إلى جواد آخر ، فلابد أن أصل إلى المدينة بأقصى سرعة .

قال القشتالى :

ـ فليكن .. سنحملك إلى هناك .

ذبح أحدهم الجواد ، فى حين منح آخر جواده لـ (فارس) ، وهو يقول :

(★) حتى زمن قريب ، لم تكن هناك أية وسيلة علمية أو طبية معروفة ، لعلاج كسور قوائم الجياد ، التى لم تكن تلتئم وحدها قط ، لذا فقد كانت الوسيلة الوحيدة هى قتل الجواد رحمة به .

- هل ستذهب إلى الحاكم ؟

أجابه (فارس) فى هدوء واقتضاب :

- كلا .

اشترك أحدهما مع الآخر ، على متن جواد واحد ، فى حين رافق الآخرون (فارس) ، واتجهوا معه إلى المدينة ، وأحدهم يضحك قائلًا :

- إنك تخفى أمرًا ما .. أليس كذلك ؟

أجابهم فى صرامة :

- نعم .. وهو أمر ملكى ، والمفروض ألا يعلم أحد بوجودى هنا .

قال آخر فى حيرة :

- وكيف يمكن هذا ؟.. إنك ترتدى زى فرسان القصر ، وما من مخلوق واحد ، فى (قشتالة) كلها ، يمكنه أن يخطئ تمييزك .

قال (فارس) :

- لهذا أحتاج إلى ثياب أخرى .. هل يعاوننى أحدكم فى هذا الشأن ؟

تبادلوا نظرات قلقة ، فأضاف بسرعة :

- مقابل مكافأة سخية بالطبع .

هتف أحدهم على الفور ، ليسبق الآخرين :

- أنا سأفعل .

وواصلوا طريقهم حتى أبواب المدينة ، فدخل القشتالى ليحضر الثياب ، فى حين سأل أحد الباقين (فارس) فى فضول :

- هل ستبقى فى (جيان) طويلًا ؟!

هزّ (فارس) رأسه ، متظاهرًا باللامبالاة ، وهو يقول :

- كلا .. ساعة واحدة أو يزيد ، وبعدها أنطلق مباشرة إلى وجهتى الحقيقية .

سأله أحدهم :

- وما هى ؟

رسم الصرامة على وجهه ، قائلًا :

- إنها مهمة سرية .

هتفوا جميعًا :

- بالطبع .. نحن نقدّر هذا .

كاد ينفجر ضاحكًا فى أعماقه ، عندما عاد القشتالى والحماس يملؤه ، وهو يحمل الثياب الجديدة ، ولكنه كتم هذا جيدًا ، ومنح الرجل مكافأة سخية بالفعل ، ثم قال للجنود فى حزم :

- إياكم أن تخبروا أى مخلوق بوجودى .. مولاى الملك يختبر قدرة جنوده على الكتمان بهذه الوسيلة .. بل وربّما أرسل خلفى من يسأل عنى ، والويل لمن يخبره .

أجابوا بسرعة :

- اطمئن يا فارس القصر .. نحن نفهم هذا جيدًا .

صافحهم مودِّعًا ، ثم انطلق بجواده داخل المدينة ، وترك ابتسامته الساخرة تتكوَّن على شفتيه ، وهو يغمغم :

- لو أن كل فرسان (قشتالة) على هذه الوتيرة ، فسيدهشنى ألا نستعيد (الأندلس) ثانية .

واصل طريقه عبر طرقات (جيان) ، وهو يسأل كل من يلتقى به عن (صفوان) هذا ، حتى أرشده أحدهم إليه ، فاتجه إلى داره مباشرة ، وقال لخادمه :

- أخبر مولاك أننى رسول الشيخ إليه .

ولم يكد الخادم يبلغ (صفوان) ، حتى هرع إلى (فارس) ، هاتفًا :

- مرحبًا بالضيف الكريم ، رسول شيخنا العظيم .

وصافحه فى حرارة ومودّة ، على الرغم من أنهما لم يلتقيا من قبل قط ، وقاده بسرعة إلى قاعة الضيوف ، وهناك سأله فى لهفة :

- بم يأمرنا مولاى الوزير ؟

أجابه (فارس) فى هدوء :

- أريد أن أرسل رسالة عاجلة إلى (غرناطة) .

قال الرجل فى حماس :

- على الرحب والسعة ، سأسرج جوادًا على الفور ، وأرسل أفضل خدمى ، و ...

قاطعه (فارس) :

- هذا لن يصلح .

بُهت الرجل ، وسأله فى قلق :

- لماذا أيها الفارس ؟

تنهَّد (فارس) ، وهو يجيب :

- لأنه من الضرورى أن تصل الرسالة الليلة ، وإلا سقطت مملكة (غرناطة) فى قبضة القشتاليين .

اتسعت عينا الرجل ، وهتف :

- رحماك يا ربى .

ثم راح يفتل لحيته ، مرددًا فى انزعاج :

- ولكن كيف نبلغ (غرناطة) بهذه السرعة ؟!

قال (فارس) :

- بالوسيلة التقليدية .

التفت إليه الرجل فى لهفة ، وهو يسأل :

- أية وسيلة ؟

أجاب (فارس) بسرعة :

- الحمام الزاجل .

بدا الأسى على وجه الرجل ، وهو يغمغم :

- نعم .. الحمام الزاجل .. هذه هى الوسيلة .. ياللخسارة !.. ياللخسارة !

سأله (فارس) فى قلق :

- ما الخسارة فى الأمر ؟

قلب الرجل كفيه ، وغمغم فى أسى :

- لم يعد عندى حمام زاجل غرناطى المنشأ .

قفز (فارس) من مكانه ، وهو يصرخ :

- ماذا تقول ؟

وانتابه توتر شديد ، مع استطرادته :

- ولكنها الوسيلة الوحيدة لتبلغ الرسالة بهذه السرعة ، فحتى الجواد القوى ، لا يمكنه أن يسبق الحمام الزاجل(*) .

عقد (صفوان) حاجبيه ، وراح يدور فى القاعة لحظات ، ثم قال فى حزم :

- فليكن .. اترك لى هذه المشكلة لساعة واحدة .

سأله (فارس) :

- ما الفكرة التى تدور فى رأسك ؟

اتجه إلى الباب فى خطوات سريعة ، وهو يقول :

- ستعلم حين أعود .

(*) حقيقية علمية .

لم يهدأ (فارس) أبدًا ، منذ غادر (صفوان) المنزل ، وراح يقطع المكان فى توتر شديد ، وهو يسأل نفسه : كيف يمكن حل مثل هذه المشكلة ؟..

كيف تصل الرسالة إلى (غرناطة) فى الوقت المناسب ؟..

كيف ؟!

كان يعلم أن وصول الرسالة فى موعدها ، هو وحده القادر ، بعد الله (سبحانه وتعالى) ، على إنقاذ (غرناطة) هذه المرة ..

(غرناطة) ، التى صارت بالنسبة إليه رمزًا للأمل ..

(غرناطة) ، التى نادته ، فلبى نداءها دون تردُّد ، باذلا كل عزيز لديه من أجلها ..

وغاب (صفوان) طويلًا ..

غاب أكثر من ساعة ، بدت لـ (فارس) أشبه بدهور كاملة ، ليس لها من نهاية ..

وأخيرًا وصل الرجل ..

وصل وهو يحمل حمامة من النوع الزاجل ، جعلت (فارس) يهتف فى لهفة :

- أهى من (غرناطة) :

أجابه الرجل فى حماس :

- بل من (شنتفى) .

بدت خيبة الأمل على وجه (فارس) ، ولكن (صفوان) استدرك بسرعة ، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة :

- ولكن صاحبها فى (شنتفى) لديه حمام زاجل من (غرناطة) .

هتف (فارس) فى سعادة :

- آه .. فهمت .

وبعد دقائق معدودة ، كانت تلك الحمامة تنطلق نحو (شنتفى) ، وقبل أن يحل المساء ، كانت هناك أخرى ، تحمل الرسالة نفسها إلى عاصمة المملكة العربية الأخيرة فى (الأندلس) ..

إلى (غرناطة) .

* * *



١٠ - الختام ..

لم تشهد (غرناطة) ، منذ زمن طويل للغاية ، فرحًا وسعادة ، كاللذين عاشتهما فى ذلك اليوم ، عندما عادت الجيوش ظافرة منتصرة ، بعد أن صدَّت هجوم القشتاليين ، ودحرت جيوشهم ، وأجبرتها على الفرار أمامها ، فى معركة خالدة ، قاد فيها (مهاب) الجيوش الأندلسية ، ضد (مارشيلو) وجيوشه القشتالية ..

وفى قصر الأمير (ابن الأحمر) ، أقيمت الاحتفالات ابتهاجًا بالنصر ، وكان (مهاب) ، قائد فرسان (قرطبة) السابق ، هو نجم احتفالات (غرناطة) الذى يلتف حوله الجميع ، والذى تحيط به الأسئلة ..

كان الأمير نفسه يسأله :

- هل نفذت خطتك بالضبط يا قائد الفرسان ؟

أجابه (مهاب) فى سعادة :

- نعم يا مولاى .. تركنا القشتاليين يهاجمون ، وهم يتصوَّرون أنهم يقتحمون منطقة خالية ، ثم التف حولهم جيش الميمنة وجيش الميسرة ، وفى اللحظة التى كشفوا فيها وجود جيش المواجهة ، واستعدّوا للاشتباك معه ، كان الجيشان الآخران ينقضّان عليه من يمينه ويساره .

ضحك أحد القادة ، وهو يقول :
ـ أكاد أتخيَّل وقع المفاجأة على وجوههم .
أجابه (مهاب) :
ـ بل على كيانهم كله .. لقد ارتبكت صفوفهم على نحو عجيب ، وكأنهم لم يتوقعوا منا أدنى مقاومة ، وبدءوا انسحابهم على الفور ، وعلى الرغم من أنهم يفوقوننا عددًا وعدة ، إلا أنهم فروا أمامنا كالأرانب ، وسقط العشرات منهم تحت ضربات سيوفنا ورماحنا ، وأسرنا عشرات آخرين ، من بينهم قائدهم (مارشيلّو) نفسه .
قال الأمير في ارتياح :
ـ ما أحلى النصر .. كدنا نفقد الأمل في أن نشاهد يومًا كهذا في حياتنا .
أومأ الشيخ برأسه ، ولوَّح بسبابته ، قائلًا :
ـ لا تجعلوا خمر النصر تسكركم ، فلم تدحروا عدوكم تمامًا بعد ، ومازالت جيوش القشتاليين تتربَّص بكم ، وتنتظر اللحظة المناسبة لتنقضَّ عليكم ، وتلقيكم من (غرناطة) إلى البحر .
تنهَّد الأمير ، وهو يقول :
ـ أنت على حق أيها الوزير .. ولكن ماذا نفعل ؛ لنحافظ على ما تبقَّى لنا من (الأندلس) ؟

هتف أحد القادة :
ـ نعدّ جيوشنا ، وندرِّبها على القتال أكثر .
قال الشيخ في رصانة :
ـ قبل أن تفعلوا هذا ، اعملوا على تنقية أنفسكم من شوائبها .. ابتعدوا عن الفساد والخمور والعبث .. اعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا ، وسيكون لكم النصر بإذن الله .
قال الأمير في حماس :
ـ تحت قيادة (مهاب) بالطبع .
هتف (مهاب) :
ـ لا يا مولاي .. جيشك يضمّ رجالًا أفضل بكثير من (مهاب) دعهم يقودون الجيش ، الذي نشأ في رعايتهم ، ودعني أعُد إلى معسكرنا ، لأنعم بأيامي الأخيرة مع مولاي الوزير .
قال الأمير :
ـ خسارة يا (مهاب) .. أنت أفضل من رأيت في قيادة الجيوش ، ومعك يصبح النصر أقرب .. لن أجبرك على قبول عرضي ، ولكن حاول أن تفكِّر فيه بجدية .. عدني بهذا .
تنهَّد (مهاب) ، وقال :
ـ أعدك يا مولاي .

ثم ابتسم فى سعادة ، مستطردًا :

- ولكن الواقع يا مولاى أن الفضل الأوّل فى النصر ، بعد الله (سبحانه وتعالى) يعود إلى تلميذى النجيب ، الذى واجه الخطر بصدر عار ، ليحصل على موعد ومكان الهجوم ، ولولا هذا ما باغتنا هؤلاء القشتاليين .

قال الأمير :

- أتقصد (فارس) ؟.. أنت على حق يا قائد الفرسان .. هذا الفتى هو أعظم من رأيت فى جيله ، وأكثرهم عزمًا وشهامة وشجاعة ، و ...

بتر عبارته ، وهو يتلفت حوله ، قائلًا فى دهشة :

- ولكن أين هو ؟.. ألم يكن هنا منذ لحظات ؟

ابتسم الشيخ مغمغمًا :

- (فارس) لا يصلح للحفلات .. إنه طائر برى طليق ، لا يجد سعادته بين الجدران العالية ، وإنما يشعر بحريته فقط تحت السماء والنجوم اللامعة ..

ولم يدر لحظتها كم كانت عبارته صادقة ؛ ففى تلك اللحظة بالذات ، كان (فارس) يجلس فى واحدة من شرفات القصر البعيدة ، وقد استند بظهره إلى الجدار ،

وراح يتطلّع فى صمت إلى النجوم ، التى بدت له فى تلك الليلة ، وكأنها تشارك قلبه بضيائها وخفقاتها ، وهى ترسم مع خياله صورة جعلته يحلم بالعودة مرة أخرى إلى حيث ترك قلبه ..

إلى (همسة) ..

(همسة قرطبة) .

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]



٧

فارس الأندلس

من البطـولات العربيـة
فى أحرج فترة للعرب فى أسبانيا

نداء غرناطة

- لماذا انطلق أمير (غرناطة) لزيارة (فارس) فى معسكره سرًا ؟!
- ما سر ذلك الصراع العنيف ، بين ملك وملكة (قشتالة) ؟!
- ترى هل ينجح (فارس) فى مهمته هذه المرة ، وهل يهزم (قرطبة) ليلبى (نداء غرناطة) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وغص فى أعماق التاريخ مع (فارس الأندلس) .

الرواية القادمة : رأس السهم

للمؤلف



د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الثمن فى مصر ١٠٠ مـ
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم